الباب الثانى

السنة فى عصر الصحابة والتابعين

الفصل الأول :

١ — اقتداء الصحابة والتابعين بالرسول صلى الله عليه وسلم .
٢ — احتياط الصحابة والتابعين وورعهم فى رواية الحديث .
٣ — تثبت الصحابة والتابعين فى قبول الحديث .
٤ — كيف روى الحديث فى ذلك العصر . . باللفظ أم بالمعنى ؟

الفصل الثانى :

١ — النشاط العلمى فى عصر الصحابة والتابعين .
٢ — انتشار الحديث فى عصر الصحابة والتابعين ،
٣ — الرحلة فى طلب الحديث .

الفصل الأول

بين يدى الفصل :

كان مصدر التشريع فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب الله وسنة رسوله : ينزل الوحى ، فيبلغه النبى الكريم عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة ، ويبين مقاصده ، ثم يطبق أحكامه ، فكان صلى الله عليه وسلم المرجع الأعلى فى جميع أمور الأمة ، فى القضاء والفتوى ، والتنظيم المالى والسياسى والعسكرى : يعالج الأمور على مرأى من أصحابه رضى الله عنهم ، وعلى ضوء القرآن الكريم ، فإن وجد حكما للقضية فصل فيها ، وإن لم يجد اجتهد فيها حينا ، أو انتظر الوحى أحياناً ، ليعرف حكم الله تعالى ، وقد يجتهد فينزل الوحى مصححاً لاجتهاده ، لأن الله عز وجل لا يقر رسوله على الخطأ .

ثم ما لبث أن انتقل محمد صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وانقطع الوحى . ولم يبق أمام الأمة إلا القرآن العظيم والسنة الشريفة ، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : « تركتُ فيكم أمرَينِ لنْ تضلّوا ما تمسّكتُم بهما : كتابَ اللهِ وسُنتى[1] » . وتمسك الصحابة والتابعون بسنته عليه الصلاة والسلام اتباعا لأوامر الله تعالى بطاعته وقبول حكمه فى قوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا[2] » ، وقوله : « فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ، وانظر جامع بيان العلم وفضله ص ١٨٠ ج ٢ .
(٢) ٧ : الحشر

حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً [١] » وقوله : « وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ [٢] » .

والاستجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة فى حياته وبعد وفاته . وقد امتثل الصحابة لأوامر الله تعالى فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ونفذوها مخلصين ، وحموا الشريعة بالمال والدماء ، وكذلك فعلوا بعد وفاته ، وقوفاً عند وصيته عليه الصلاة والسلام ، التى سمعها منه الصحابة رضوان الله عليهم ، ويرويها العِرباضُ بن سَارِيَةَ رضى الله عنه فيقول : « وعظنا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم موعظةً وَجِلَتْ منها القلوبُ ، وذَرَفَتْ منها العيونُ ، فقلنا : يارسولَ اللهِ ، كأنها موعظةُ مودِّعٍ ، فأَوْصِنا . قالَ : أوصيكم بتقوى اللهِ عزَّ وجل ، والسمعِ والطاعةِ وإنْ تأمّر عليكم عبد ، فإنه مَنْ يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسُنَّتى وسنةِ الخلفاءِ الراشدينَ المَهدِيِّينَ ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ ، وإيّاكم ومحدثاتِ الأمورِ ، فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالَةٌ [٣] . » فأخذوا بسنته عليه الصلاة والسلام ، وتمسكوا بها ، وأبوا أن يكونوا ذلك الرجل الذى ينطبق عليه قوله عليه الصلاة والسلام : « يُوشِكُ الرَّجلُ مُتَّكِئاً على أريكتِهِ يُحَدَّثُ بحديثٍ من حديثى فيقولُ : بَيْنَنَا وبينَكُم كتابُ اللهِ عزَّ وَجَلَّ ، فما وَجَدْنا فيه من حلال استَحْلَلْناهُ ، وما وَجَدْنا فيه من حَرَام

---

(١) ٦٥ : النساء (٢) ١٣٢ : آل عمران

(٣) الحديث الثامن والعشرون من الأربعين النووية ص ٦٧ وقال رواه أبو دواد والترمذى وقال حديث حسن صحيح . وأقول رواه أيضا الدارى فى سننه انظر سنن الدارى ص ٢٦ ، طبعة سنة ١٢٩٣ هـ .

حَرَّمناه ، ألاَ وَإنَّ ما حَرَّم رسولُ اللهِ مِثلُ ما حَرَّمَ اللهُ[١] » ، بل وقفوا من السنة موقفا عظيما ، وردوا على كل من فهم ذاك الفهم . روى أبو نضرة عن عمران بن حصين : « أن رجلا أتاه فسأله عن شيء ، فحدثه ، فقال الرجل حدثوا عن كتاب الله عز وجل ، ولا تحدثوا عن غيره . فقال إنك امرؤ أحمق!! أتجد فى كتاب الله صلاة الظهر أربعاً لا يجهر فيها ، وعدّ الصلوات ، وعد الزكاة ونحوها ، ثم قال : أتجد هذا مفسرا فى كتاب الله ؟ كتابُ الله قد أحكَمَ ذلك ، والسُّنَّةُ تُفسرُ ذلك[٢] . » ، وقال رجل للتابعى الجليل مُطَرِّف ابن عبد الله بن الشِّخِّير : لا تحدثونا إلا بالقرآن . فقال له مطرف : « والله ما نريد بالقرآن بدلا ، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا[٣] » .

وسنستعرض الآن تأسى الصحابة والتابعين بالرسول وتمسكهم بالسنة المطهرة ، ثم احتياطهم وورعهم فى رواية السنة ، ثم تثبتهم فى قبول الأخبار والآثار عن النبى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سنن ابن ماجه ص ٥ ج ١ وسنن البيهقى ص ٦ ج ١ رواه المقدام بن معدى كرب

(٢) كتاب العلم للمقدسى مخطوطة الظاهرية ص ٥١ وجامع بيان العلم وفضله ص ١٩١ ج ٢

(٣) جامع بيان العلم وفضله ١٩١ ج ٢ .

اقتداء الصحابة والتابعين برسول صلى الله عليه وسلم

لقد استجاب المسلمون الأوائل إلى قوله عز وجل : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسوةٌ حَسَنَةٌ[1] » ، فتفانوا فى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وساروا على هديه ، وهذه صور سريعة عن تمسكهم بالسنة النبوية، تتناول أحوال الرعية والرعاة فى مختلف جوانب الحياة .

فها هو ذا أبو بكر الصديق يعقد لواء أسامة بن زيد ، ويأبى أن يحتفظ بجيشه وهو فى أشد الحاجة إليه ، ويقول : ما كان لى أن أحل لواء عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعقد اللواء لخالد بن الوليد ليقاتل المرتدين ، ويقول : إنى سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نِعمَ عبدُ اللهِ وأخو العشيرةِ خالدُ بنُ الوليـــدِ ، وسيفٌ من سيوفِ اللهِ سلَّه الله عز وجل على الكفار والمنافقين[2] » .

وتأتيه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تطلب سهم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيقول لها : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إنَّ الله عز وجل إذا أطعَمَ نبياً طعمةً ، ثم قبضَهُ جعلَه للذى يقومُ من بعده ، فرأيت أن أرده على المسلمين ، فقالت : فأنت وما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم[3] » وقال فى رواية : « لستُ تاركاً شيئاً كان رسولُ الله صلى الله

---

(١) ٢١ : الأحزاب .

(٢) مسند الامام أحمد ص ١٧٣ ج ١ باسناد صحيح عن أبى بكر .

(٣) مسند الامام أحمد ص ١٦٠ ج ١ باسناد صحيح ونحوه فى ص ١٧٧ و ١٧٨ ج ١ .

عليه وسلم يعمل به إلا عملت به ، وإنى أخشى إن تركتُ شيئاً من أمرِهِ أن أزيغ »[١] .

ولما ارتد مسيلمةُ الكذاب وقومه قال عمر لأبى بكر رضى الله عنهما : « تقاتلهم وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (أمرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عَصَموا منى دماءهم وأموالَهم إلا بحقها ، وحسابُهم على الله تعالى) — ؟ فقال أبو بكر : والله لا أفرق بين الصلاة والزكاة ، ولأقاتِلَنَّ من فرق بينهما . قال أبو هريرة فقاتلنا معه فرأينا ذلك رشدا[٢] » .

وعن السائب بن يزيد ابن أخت نَمِرٍ أن حُويطِبَ بن عبد العُزَّى أخبره أن عبد الله بن السعدى أخبره : أنه قدم على عمر بن الخطاب فى خلافته ، فقال له عمر ألَمْ أُحَدَّثْ أنك تَلى من أعمالِ الناسِ أعمالا ، فإذا أعطيتَ العمالةَ كرهتَها ؟ قال : فقلت : بَلَى . فقال عمر : فما تريد إلى ذلك ؟ قال : قلت : إن لى أفراسا وأعبدا وأنا بخير ، وأريدُ أن تكونَ عَمالتى صدقةً على المسلمين ، فقال عمر : فلا تفعل ، فإنى قد كنت أردت الذى أردت ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يعطينى العطاء فأقول : أعطه أفقرَ إليه منى ، حتى أعطانى مرةً مالاً فقلت : أعطه أفقر إليه منى ، قال : فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « خذه فتَموَّلْهُ وتصدَّقْ به ، فما جاءك من هذا المالِ ، وأنتَ غيرُ مشرفٍ ولا سائل فخذه ، وما لا فلاَ تُتْبِعْهُ نفسَك[٣] . »

---

(١) مسند الإمام أحمد ص ١٦٧ ج ١ باسناد صحيح من حديث طويل .

(٢) مسند الإمام أحمد ص ١٨١ ج ١ باسناد صحيح ، ما بين القوسين الكبيرين لفظ الحديث الذى ذكره أبو هريرة أولا ثم ذكر مناقشة عمر وأبى بكر رضى الله عنهما .

(٣) مسند الإمام أحمد ص ١٩٧ ج ١ باسناد صحيح قال الحافظ ابن حجر فى التهذيب =

وعن فروخ مولى عثمان : أن عمر — وهو يومئذ أمير المؤمنين — خرج إلى المسجد ، فرأى طعاماً منثوراً ، فقال : ما هذا الطعام ؟ فقالوا : طعام جلب إلينا . قال : بارك الله فيه وفيمن جلبه ، قيل يا أمير المؤمنين : فإنه قد احتكر ، قال : ومن احتكره ؟ قالوا : فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر ، فأرسل إليهما فدعاهما ، فقال : ما حملكما على احتكار طعام المسلمين ؟ قالا : يا أمير المؤمنين ، نشترى بأموالنا ونبيع . فقال عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من احتكرَ على المسلمين طعامَهم ضربَهُ اللهُ بالإفلاسِ أو بجذامٍ » فقال فروخ عند ذلك : يا أمير المؤمنين ، أعاهد الله وأعاهدك أن لا أعود فى طعام أبداً ، وأما مولى عمر فقال : إنما نشترى بأموالنا ونبيع قال أبو يحيى : فلقد رأيت مولى عمر مجذوماً[1] .

وفى وقعة اليرموك كتب القادة إلى عمر بن الخطاب : « إنه قد جاش إلينا الموت » يستمدونه ، فكان فيما أجابهم « إنى أدلكم على من هو أعز نصرا ، وأحضر جنداً ، الله عز وجل ، فاستنصروه ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم ، قد نصر يوم بدر فى أقل من عدتكم ، فإذا أتاكم كتابى هذا فقاتلوهم ولا تراجعونى[2] » ! !

هكذا كان الصحابة يتمسكون بهدى النبى صلى الله عليه وسلم

= ج ٣ ص ٦٦ ـ ٦٧ فى ترجمة حويطب (روى له الشيخان والنسائى حديثا واحدا فى المناقب ، وهو الذى اجتمع فى إسناده أربعة من الصحابة) يريد هذا الحديث والصحابة الأربعة : هم السائب وحويطب وعبد الله ابن السعدى وعمر) انظر هامش ص ١٩٧ ج ١ من مسند أحمد . ومعنى مشرف فى الحديث : متطلع إلى المال .

(١) مسند الإمام أحمد ص ٢١٤ حديث ١٣٥ ج ١ باسناد صحيح وأبو يحيى المكى هو راوى الحديث عن فروخ .

(٢) مسند الإمام أحمد ص ٣٠٤ ج ١ .

وسنته ، ولو كانوا يشرفون على الموت والهلاك .

وكان الصحابة جميعاً يحرصون على سنن النبى عليه الصلاة والسلام ، ويأمر بعضهم بعضاً باتباعها ، من ذلك أن عمر بن الخطاب رأى زيد بن خالد الجهنى يركع بعد العصر ركعتين فمشى إليه وضربه بالدرة ، فقال له زيد : يا أمير المؤمنين ، اضرب فوالله لا أدعهما بعد أن رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصليهما ، فقال له عمر : يا زيد ، لولا أنى أخشى أن يتخذ الناس سلماً إلى الصلاة حتى الليل لم أضرب فيها[1] .

ويرى عمر رضى الله عنه الناس قد أقبلوا على طيبات الدنيا مما أحل لهم الله تعالى ، فيذكرهم برسولهم صلى الله عليه وسلم ، فيقول : « لقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يلتوى ، ما يجد دَقَلا يملأ به بطنه[2] .

لقد كان عمر رضى الله عنه وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأسون بالرسول الكريم ما استطاعوا فى جميع أحوالهم ، فلما طعن عمر رضى الله عنه قيل له : ألا تستخلف ؟ فقال : إن أترك فقد ترك من هو خير منى : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن استخلف فقد استخلف من هو خير منى : أبو بكر[3] .

حدث مالك بن عبد الله الزيادى عن أبى ذر : أنه جاء يستأذن على عثمان ابن عفان فأذن له وبيده عصاه ، فقال عثمان : يا كعب ، إنّ عبد الرحمن توفى وترك مالا فما ترى فيه ؟ فقال : إن كان يصل فيه حق الله فلا بأس عليه ، فرفع

---

(١) كتاب الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٩٢ ، وقد روى الإمام مسلم عن أنس قال : كان عمر يضرب الأيدى على صلاة بعد العصر .

(٢) مسند الإمام أحمد ص ٣٠٧ و ٢٢٤ جـ ١ باسناد صحيح ، والدقل هو ردىء التمر ويابسه .

(٣) المرجع السابق ص ٢٨٤ جـ ١ .

أبو ذر عصاه فضرب كعبا ، وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أحبُّ لو أنَّ لى هذا الجبلَ ذهباً أنفقه وَيُتَقَبَّلُ منى أذرُ خافى منه ستَ أواق » ، أَنْشُدُكَ الله ياعثمان ، أسمعته ؟ ثلاث مرات قال : نعم[١] .

وقال عطاء الخراسانى : سمعت سعيد بن المسيب يقول : رأيت عثمان قاعدا فى المقاعد ، فدعا بطعام مما مسته النار فأكله ، ثم قام إلى الصلاة فصلى ، ثم قال عثمان : قعدت مقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكلت طعام رسول الله وصليت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] .

وعن ميسرة بن يعقوب الطهوى قال : رأيت عليا يشرب قائما . قال فقلت له : تشرب قائما ؟! فقال : إن أشرب قائما فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب قائما ، وإن أشرب قاعدا فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب قاعدا[٣] .

وعن عبد خَيْر بن يزيد الخيوانى الهمدانى (تابعى) عن على (رضى الله عنه) قال : كنت أرى أن باطن القدمين أحق بالمسح من ظاهرهما ، حتى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح ظاهرهما[٤] .

وعن على بن ربيعة قال . رأيت عليا أتى بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله فى الركاب قال : باسم الله ، فلما استوى عليها قال : الحمد لله ، سبحانه الذى

---

(١) مسند الإمام أحمد ص ٣٥٧ ج ١ باسناد صحيح .

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٨ ج ١ باسناد صحيح . ويظهر أن المقاعد مكان فى المسجد كانوا يتوضؤون عنده ، وقد ورد ذكره فى حديث رواية عثمان لوضوء الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) مسند الإمام أحمد ص ١٧٩ حديث ٩١٦ ج ٢ باسناد حسن ومن طريق زاذان أن على بن أبى طالب شرب قائما فنظر إليه الناس كأنهم أنكروه ، فقال : ما تنظرون ؟ إن أشرب قائما الحديث باسناد صحيح نفس المرجع ص ١٣٠ ج ٢ حديث ٧٩٥ .

(٤) مسند الإمام أحمد ص ١٠٣ حديث ٧٣٧ و ٩١٧ ج ٢ باسناد صحيح .

سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، ثم حمد الله ثلاثا وكبر ثلاثا ، ثم قال : سبحانك لا إله إلا أنتَ ، قد ظلمتُ نفسى ، فاغفر لى ، ثم ضحك ، فقلت : مم ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل مثل ما فعلتُ ، ثم ضحك فقلت : مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : « يعجبُ الربُ من عبدِه إذا قالَ ربِّ اغفر لى ، ويقولُ علمَ عبدى أنَّهُ لا يَغفرُ الذنوبَ غيرى [١] . »

وكان الصحابة يتأسون بالرسول الكريم ، ويحافظون على سنته ، سواء أعرفوا علة ذلك أم لم يعرفوا ، وسواء أتوقعوا حكمة لما يفعلون أم لم يتوقعوا ، وقد اشتهر عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بمحافظته الشديدة على سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان الرسول أسوته فى كل شىء ، فى صلاته وحجه وصيامه ، حتى فى قضاء حاجته [٢] وكان كثيراً ما يقول : « لَقَدْ كانَ لَكُم فى رسولِ اللهِ أسوةٌ حَسنة [٣] » ، وكان إذا سمع من الرسول صلى الله عليه وسلم شيئا ، أو شهد معه مشهدا ، لم يُقصر دونه أو يعدوه [٤] ، كان يقف عند الحد الوارد فى الحديث أو الفعل النبوى من غير إفراط ولا تفريط . عن مجاهد قال كنا مع ابن عمر فى سفر ، فمر بمكان فحاد عنه ، فسئل : لم فعلت ؟ فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل هذا ففعلت [٥] ، وكان يأتى

---

(١) مسند الإمام أحمد ص ١٠٩ حديث ٧٥٣ جـ ٢ .

(٢) راجع مسند الإمام أحمد ص ١٩١ حديث ٦٣٩١ و ٦١٥١ جـ ٩ .

(٣) ٢١ : الأحزاب .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ص ٢٩٧ حديث ٥٥٤٦ جـ ٧ باسناد صحيح ، وسنن ابن ماجه ص ٣ جـ ١ .

(٥) مسند الإمام أحمد ص ٥٤ حديث ٤٨٧٠ جـ ٧ باسناد صحيح .

شجرة بين مكة والمدينة فيقيل تحتها ، ويخبر أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يفعل ذلك[١] .

ووقف عمر بن الخطاب على الركن قائلا : « إني لأعلم أنك حجر ، ولو لم أر حبيبي صلى الله عليه وسلم قبلك أو استلمك ما استلمتك ولا قبلتك (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)[٢] .

وكان ينهى أن يزيد إنسان على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يعلى بن أمية : طفت مع عمر بن الخطاب ، فلما كنت عند الركن الذى يلى الباب مما يلى الحجر ، أخذت بيده ليستلم ، فقال : أما طفت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : بلى ، قال : فهل رأيته يستلمه ؟ قلت : لا . قال : فاهْذُذْ عنك ، فإنّ لك فى رسولِ اللهِ أسوةً حسنةً[٣] .

وقال على رضى الله عنه فى القيام للجنازة : قد رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فقمنا ، وقعد فقعدنا[٤] .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر الصحابة ومن معه يوم الفتح بأن يكشفوا عن مناكبهم ، ويهرولوا فى الطواف ، ليرى المشركون قوتهم وجلدهم ، وقويت دولة الإسلام ورأى عمر أن هذا الأمر قد ذهبت علته ، ولكنه قال: « فيم[٥] الرملان الآن والكشف عن المناكب ، وقد أطّأ الله الإسلام ونفى الكفر

---

(١) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص ١٢٦ وقد أخرجه البزار .

(٢) مسند الإمام أحمد ص ٢١٣ و ١٩٧ جـ ١ باسناد صحيح .

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٥ جـ ١ باسناد صحيح .

(٤) مسند الإمام أحمد ص ٥٢ جـ ٢ باسناد صحيح .

(٥) فى الأصل (فيما) وانظر الهامش التالى .

وأهله ؟ ومع ذلك لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [١]

وقيل لعبد الله بن عمر : لا نجد صلاة السفر فى القرآن ؟ فقال ابن عمر : إن الله عز وجل بعث إلينا محمدا صلى الله عليه وسلم ، ولا نعلم شيئا فإنما نفعلُ كما رأينا محمدا صلى الله عليه وسلم يفعل [٢] . وفى رواية قال : وكنا ضُلّالا فهدانا الله به ، فبه نقتدى [٣] .

كان الصحابة رضى الله عنهم لا يرضون ترك سنة كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يقبلون مع السنة رأى أحد مهما كان شأنه ، ومهما علت مكانته بل كانوا يغضبون غضباً شديدا وينكرون إنكارا قوياً على من لايستجيب لسنة سنها الرسول الكريم ، أو خالق تخالق به ، ولو كان من ينكرون ذلك عليهم ولدهم أو أقرب الناس إليهم .

من ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن عبد الله بن مُغَفَّل [٤] أنه كان جالساً إلى جنبه ابن أخ له ، فَخَذَفَ [٥] ، فنهاه وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها وقال : إنها لا تصيد صيدا ولا تنكى عدوا ، وإنها تكسرُ السِّن ،

---

(١) مسند الإمام أحمد ص ٢٩٣ حديث ٣١٧ ج ١ باسناد صحيح . أطلْ : ثبت وأرسى والهمزه فيه بدل واو (وطأ) . فيا : استفهامية وظاهر كلام النحويين وجوب حذف ألفها إذا دخل عليها حرف الجر ، ولكن قرأ عبد الله وأبى وعكرمة وعيسى (عما يتساألون) بالألف .

(٢) مسند الإمام أحمد ص ٦٨ حديث ٥٦٨٣ ج ٨ و ص ٢٠٩ حديث ٥٣٣٣ ج ٧ والسائل فى الحديث المذكور هو خالد بن أسيد .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٧ حديث ٥٦٩٨ ج ٨ .

(٤) عبد الله بن مغفل صحابى جليل من أصحاب الشجرة روى عن النبى (ص) وعن أبى بكر وعثمان وغيرهم ، وعنه روى ثابت البنانى . . سكن المدينة ثم تحول إلى البصرة وتوفى فيها سنة (٥٧) هـ وقيل ٦١ وقيل ٦٠ . انظر تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٤٢ .

(٥) خذف : من الخذف وهو أن يجعل الحصاة أو النواة بين سبابتيه ويرمى بها .

وتفقأ العين . قال : فعاد ابن أخيه يخذف فقال : أحدثك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ، ثم عدت تخذف إذاً لا أكلمك أبدا ! ![1]

وعن سالم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تمنعوا إماء الله أن يصلين فى المسجد ، فقال ابن له : إنا لنمنعهن ، فقال : فغضب غضباً شديداً وقال : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول : إنا لنمنعهن[2] . وفى رواية فانتهره عبد الله ، قال : أف لك ! ! أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول : لا أفعل[3] .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : تمتع النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال عروة بن الزبير : نهى أبو بكر وعمر عن المتعة ! ! فقال ابن عباس : ما يقول عُرَيَّةُ ؟ قال : يقول نهى أبو بكر وعمر عن المتعة ! ! فقال ابن عباس : أراهم سيهلكون ! أقول : قال النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقول : نهى أبو بكر وعمر[4] ! !

وهذا عبادة بن الصامت الأنصارى ، النقيب ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غزا مع معاوية أرض الروم ، فنظر إلى الناس وهم يتبايعون كِسَرَ الذهب بالدنانير ، وكِسَرَ الفضة بالدراهم ، فقال : يأيها الناس ، إنكم تأكلون الربا ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تبتاعوا الذهبَ

---

(١) سنن ابن ماجه ص ٦ ج ١ .

(٢) سنن ابن ماجه ص ٦ ج ١ ونحوه فى مسند الإمام أحمد ص ٢٦٦ حديث ٥٤٦٨ ج ٧ باسناد صحيح . وابن عبد الله بن عمر هذا هو بلال : كما ذكره فى الحديث رقم ٥٦٤٠ من المسند فى ص ٤٣ ج ٨ .

(٣) مسند الإمام أحمد ص ٢٩٠ حديث ٦٠٩٦ ج ٨ وص ١٣٢ حديث ٦٢٩٦ ج ٩ باسناد صحيح وانظر نحوه فى جامع بيان العلم ص ١٩٥ ج ٢ .

(٤) مسند الإمام أحمد ص ٤٨ حديث ٣١٢١ ج ٥ باسناد صحيح .

بالذهب إلا مثلاً بمثل ، لا زيادةَ بينهما ، وَلا نَظِرَة » ، فقال له معاوية : يا أبا الوليد لا أرى الربا فى هذا إلا ما كان من نظرة ، فقال عبادة : أحدثك عن رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وتحدثنى عن رأيك ، لئن أخرجنى الله لا أساكنك بأرض لك على فيها إمرةٌ فلما قفل لحق بالمدينة ، فقال له عمر بن الخطاب : ما أقدمك يا أبا الوليد ؟ فقص عليه القصة ، وما قال من مساكنته . فقال : ارجع يا أبا الوليد إلى أرضك ، قبح الله أرضا لست فيها وأمثالك ، وكتب إلى معاوية ، لا إمرة لك عليه ، وأحمل الناس على ما قال ، فإنه هو الأمر[1] .

أولئك صحابة رسول الله الذين حفظوا سنته ، ووجهوا الأمة إلى السبيل القويم ، وحملوا الأمراء على تطبيق أحكام الشريعة ، وأبوا أن يماروا فى دين الله صادعين بالحق ، لا يخافون فيه لومة لائم .

وعن الزبير بن عربى قال : سمعت رجلا يسأل ابن عمر عن الحجر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله ، فقال رجل : أرأيتَ إن زُحمتُ ؟ فقال ابن عمر : اجعل (أرأيت) باليمن !! رأيت رسول الله يستلمه ويقبله[2] .

وعن وبرة بن عبد الرحمن قال : أتى رجل إلى ابن عمر فقال : أيصلحُ أن أطوفَ بالبيت وأنا محرم ؟ قال : ما يمنعك من ذلك ؟ . قال : إن فلانا ينهانا عن

---

(١) سنن ابن ماجه ص ٧ ج ١ . كسرة الذهب كالقطعة لفظا ومعنى ، وجمعها كسر كقطع. نظرة : انتظار أى أجل .

(٢) مسند الإمام أحمد ص ١٩٤ ج ٩ باسناد صحيح وقد أخرجه البخارى . ومن الخطأ أن يظن ظان من قول ابن عمر أن اليمن كانت تعتمد على الرأى إنما ضرب اليمن مثلا لجهة قاصية يرمى اليها هذا الاعتراض أدبا مع السنة النبوية ، مبينا أنه لا مجال للسؤال والجواب إذا ما وجدت السنة فى أمر ما ، ويدل على ، ذلك رواية الطيالسى وفيها اجعل (أرأيت) مع هذا الكوكب .

ذلك حتى يرجع الناس من الموقف ، ورأيته كأنه مالت به الدنيا ، وأنت أعجب إلينا منه . قال ابن عمر : حج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطاف بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة ، وسنة الله تعالى ورسوله أحق أن تتبعَ من سنة ابن فلان ، إن كنت صادقا[1] . وفى رواية أخرى صرح بأن الذى كنى عنه بفلان هو ابن عباس .

وكان عبد الله بن عمر يفتى بالذى أنزل الله عز وجل من الرخصة بالتمتع وبما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، فيقول ناس لابن عمر : كيف تخالف أباك وقد نهى عن ذلك ؟ فيقول لهم عبد الله : ويلكم ! ! ألا تتقون الله ؟ إن كان عمر نهى عن ذلك فيبتغى فيه الخير يلتمس به تمام العمرة ، فلم تحرمون ذلك وقد أحله الله وعمل به رسول الله عليه الصلاة السلام ؟ ! أفرسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن تتبعوا سنته أم سنة عمر ؟ إنَّ عمرَ لم يقل لكم إن العمرة فى أشهر الحج حرام ، ولكنه قال إن أتم العمرة أن تفردوها من أشهر الحج[2] .

وفى ختام ذلك أسوق تمسك عبدِ الله بن عمرو بن العاص بعبادته التى فارق عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان عبد الله بن عمرو من أعبد الصحابة وأورعهم وأزهدهم ، كثير الصيام والقيام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) مسند الإمام أحمد ص١٦٩ حديث ٥١٩٤ ج ٧ باسناد صحيح .

(٢) مسند الإمام أحمد ص ٧٧ حديث ٥٧٠٠ ج ٨ وإسناده صحيح . وفى الموطأ كما رواه محمد : مالك عن نافع ، أن عمر بن الخطاب قال : « افصلوا بين حجتكم وعمرتكم ، فانه أتم لحج أحدكم وأتم لعمرته أن يعتمر فى غير أشهر الحج » انظر هامش صفحة ٧٨ فى الجزء الثامن .

قد رخص له أن يصوم أياماً من كل شهر إلا أنه وجد فى نفسه القوة على الصيام وأراد أن يصوم الدهر كله ، وفى آخر أيامه ضعف عن ذلك فقال : « لأن أكون قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إلىّ مما عُدِلَ به أو عَدَل . لكنى فارقته على أمر أكره أن أخالفه إلى غيره (١) .

• • •

(١) مسند الإمام أحمد ص ٢٤٠ حديث ٦٤٧٧ جـ ٩

عدل به : أى وزن . أى من كل شىء يقابل ذلك من الدنيويات ، أو عدل أى ساوى والمعنى مقارب فى الحرمين .

وانظر الرسالة ص ٤٤٦ فيها أخبار عن تمسك بعض الصحابة بالسنة وعدم قبول رأى لأحد مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

احتياط الصحابة والتابعين في رواية الحديث

لقد عرف الصحابة منزلة السنة فتمسكوا بها ، وتتبعوا آثار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبو أن يخالفوها متى ثبتت عندهم ، كما أبوا أن ينحرفوا عن شيء ، فارقهم عليه ، واحتاطوا في رواية الحديث عنه عليه الصلاة والسلام ، خشية الوقوع في الخطأ ، وخوفا من أن يتسرب إلى السنة المطهرة الكذب أو التحريف ، وهي المصدر التشريعي الأول بعد القرآن الكريم، ولهذا اتبعوا كل سبيل يحفظ على الحديث نوره ، فآثروا الاعتدال في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل إن بعضهم فضل الإقلال منها ، قال ابن قتيبة : « كان عمر شديد الإنكار على من أكثر الرواية ، أو أتى بخبر في الحكم لا شاهد له عليه ، وكان يأمرهم بأن يقلوا الرواية ، يريد بذلك ألا يتسع الناس فيها ، ويدخلها الشوب ، ويقع التدليس والكذب من المنافق والفاجر والأعرابي ، وكان كثير من جلة الصحابة وأهل الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأبي بكر والزبير وأبي عبيدة والعباس بن عبد المطلب — يقلون الرواية عنه ، بل كان بعضهم لا يكاد يروي شيئاً كسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة[1] . »

والتزم الصحابة — في الخلافة الراشدة — منهاج عمر رضي الله عنه ، وأتقنوا أداء الحديث ، وضبطوا حروفه ومعناه[2] ، وكانوا يخشون كثيراً أن يقعوا في الخطأ ، لذلك نرى بعضهم — مع كثرة تحملهم عن الرسول صلى

---

(١) تأويل مختلف الحديث : ٤٨ ـ ٤٩ .

(٢) انظر المبحث الرابع من الفصل الأول في الباب الثاني فيما يلي ، وقد بينت فيه كيف روى الحديث .

الله عليه وسلم — لا يكثر من الرواية فى ذلك العهد ، حتى إن منهم من كان لا يحدث حديثاً فى السنة ، ونرى من تأخذه الرعدة ، ويقشعر جلده ، ويتغير لونه ورعا واحتراما لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن هذا ، ما رواه عمرو ابن ميمون قال : ما أخطأنى بن مسعود عشية خميس إلا أتيته فيه ، قال : فما سمعته يقول بشيء قط « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » فلما كان ذات عشية قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فنكس ، قال فنظرت إليه ، فهو قائم محلة أزرار قميصه ، قد اغرورقت عيناه ، وانتفخت أوداجه ، قال : أو دون ذلك ، أو فوق ذلك ، أو قريباً من ذلك ، أو شبيهاً بذلك[1] . »

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : لولا أنى أخشى أن أخطىء لحدثتكم بأشياء سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] . وكان إذا حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فرغ منه ، قال : أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] ، وكذلك كان يفعل أبو الدرداء وغيره .

وجالس الشعبى ابن عمر سنة فما سمعه يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا[4] .

وروى عن أنس أنه قال : إنه ليمنعنى أن أحدثكم حديثاً كثيرا

---

(١) سنن ابن ماجه ص ٨ ج ١ ، نكس أى طأطأ رأسه وجبينه .
وانظر نحوه فى مسند الإمام أحمد ص ٤٦ حديث ٤٠١٥ ج ٦ وفى الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ٩٨ : آ .

(٢) سنن الدارمى ص ٧٧ ج ١ .

(٣) سنن ابن ماجه ص ٨ ج ١ وسنن الدارمى ص ٨٤ ج ١ والسنن الكبرى للبيهقى ص ١١ ج ١ .

(٤) سنن الدارمى ص ٨٤ ج ١ وانظر السنن الكبرى ص ١١ ج ١ وأخرجه ابن ماجه فى سننه ص ٨ ج ١ .

أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ تعمّدَ عليّ كذباً فليتبوأ مقعده من النار[١] » .

وعن ثابت البناني : أن بني أنس بن مالك قالوا لأبيهم : يا أبانا ، ألا تحدثنا كما تحدث الغرباء ؟ قال : أي بني إنه من يكثر يهجر[٢] .

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى : « أدركت مائةً وعشرين من الأنصار من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ما منهم أحد يحدث بحديث إلا ودّ أن أخاه كفاه إياه ، ولا يستفتى عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه إياه » . وفي رواية : « يسأل أحدهم المسألة فيردها هذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول »[٣] .

وقال مجاهد : صحبت ابن عمر من مكة إلى المدينة . فما سمعته يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا هذا الحديث : مثل المؤمن مثل النخلة[٤] .

وقال السائب بن يزيد إنه صحب سعد بن أبي وقاص من المدينة إلى مكة ، قال : فما سمعته يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثا حتى رجع[٥] .

وعن عبد الله بن الزبير ، قال : قلت للزبير بن العوام : مالي لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أسمع ابن مسعود وفلانا وفلانا ؟ قال : أما إني لم أفارقه منذ أسلمت ، ولكني سمعت منه كلمة يقول : «من كذب

---

(١) (صحيح البخاري بحاشية السندي ص ٣١ ج ١)

(٢) طبقات ابن سعد ص ١٤ ج ٧ .

(٣) مختصر كتاب المؤمل الرد إلى الأمر الأول ص ١٣ .

(٤) انظر صحيح مسلم ص ٢١٦٥ ج ٤ ، وقبول الأخبار ص ٢٥ .

(٥) طبقات ابن سعد ص ١٠٢ قسم ١ ج ٣ ، وانظر سنن ابن ماجه ص ٩ ج ١ وسنن البيهقي ص ١٢ ج ١ ، وانظر المحدث الفاصل ص ١٣٤ : آ وفي قبول الأخبار ص ٢٥ أنه صحب طلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، والمقداد بن الأسود ... الحديث.

على متعمداً فليتبوأ مقعدَه من النارِ[١] » وفى رواية :سمعته يقول : « من كذَبَ على فليتبوأ مقعدَه من النارِ[٢] » .

وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : قلنا لزيد بن أرقم : حدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : كبرنا ونسينا ، والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد[٣] .

هكذا تشدد الصحابة فى الحديث ، وأمسك بعضهم عنه كراهية التحريف ، أو الزيادة والنقصان فى الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم لأن كثرة الرواية كانت فى نظر كثير منهم مظنة الوقوع فى الخطأ ، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد نهى رسول الله عن الكذب عليه وعن رواية ما يرى أنه كذب ، من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ روى عَنِّى حديثاً وهُوَ يرى أنَّهُ كَذِبٌ فهوَ أحدُ الكاذِبَينِ[٤] » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء كَذِباً أنْ يحدِّثَ بكلِّ ما سَمِعَ[٥] » .

وكان الصحابة رضى الله عنهم يخشون أن يقعوا فى الكذب عامة ، فكيف

---

(١) سنن ابن ماجه ص ١٠ ج ١ وقوله « أما إنى لم أقارفه » يعنى به أن ذلك ليس لقلة صحبته

(٢) الكفاية ص ١٠٢ وأخرجه البخارى كذلك : انظر فتح البارى ص ٢١٠ ج ١ وانظر المصباح المضىء ص ٢٠ : ب وتمييز المرفوع عن الموضوع ص ٢ : ب .

وفى رواية الكفاية قال قلت لأبى الزبير . . . الحديث

وانظر طبقات ابن سعد ص ٧٥ قسم ١ ج ٣ من طريق وهب بن جرير وقال بعد رواية الحديث : والله ما قال متعمدا وانتم تقولون متعمدا » .

(٣) سنن ابن ماجه ص ٨ ج ١ وسنن البيهقى ص ١١ ج ١٠ والمحدث الفاصل ص ١٣٢ : آ

(٤) مقدمة التمهيد لابن عبد البر ص ١١

(٥) مقدمة التمهيد ص ١١ وفى رواية ابن مسعود (إثما) بدل (كذبا) وانظر تذكرة الحفاظ ص ١٥ ج ١ .

يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال على رضى الله عنه : إذا حدثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فلأن أخرَ من السماء أحب إلى من أن أكذب عليه . . . [1] »

وقد تشدد عمر بن الخطاب فى تطبيق هذا المنهاج ، فحمل الناس على التثبت مما يسمعون ، والتروى فيما يؤدون ، فكان له الفضل الكبير فى صيانة الحديث من الشوائب والدَّخل ، وقد طبق ذلك الصحابة أيضاً ، يقول ابن مسعود : ليس العلم بكثرة الحديث ، ولكن العلم الخشية[2] .

ويصور لنا أبو هريرة رضى الله عنه محافظة الصحابة على السنة فى عهد عمر بإجابته عن سؤال طرحه عليه أبو سلمة ، قال له : أكنت تحدث فى زمان عمر هكذا؟ فقال: لو كنت أحدث فى زمان عمر مثل ماأحدثكم لضربنى بمخفقته[3] !

وفى رواية قال : لقد حدثتكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر لضربنى عمر بالدرة[4] .

وقد كان تشدد عمر هذا والصحابة معه للمحافظة على القرآن الكريم ، بجانب المحافظة على السنة ، فقد خشى أن يشتغل الناس بالرواية عن القرآن الكريم ، وهو دستور الإسلام ، فأراد أن يحفظ المسلمون القرآن جيدا ، ثم يعتنوا بالحديث الشريف الذى لم يكن قد دوّن كله فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كالقرآن . فنهج لهم التثبت العلمى والإقلال من الرواية مخافة الوقوع

---

(١) مسند الإمام أحمد ص ٤٥ ج ١ .

(٢) مختصر كتاب المؤمل فى الرد إلى الأمر الأول ص ٦ .

(٣) تذكرة الحفاظ ص ٧ ج ١ وانظر فى هذا الكتاب أبا هريرة القسم الثانى فى دفع شبهات عنه، وقد اشتهرت الرواية عن أبى هريرة بأن عمر سمح له بالرواية عند ما عرف خشيته وورعه .

(٤) جامع بيان العلم وفضله ص ١٢١ ج ٢ .

فى الخطأ ، وقد عرف اتقان بعض الصحابة وحفظهم الجيد فسمح لهم بالتحديث .

ويتجلى منهاج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى وصيته التى أوصى بها وفده إلى الكوفة فيما روى عن قرظة بن كعب أنه قال : « بعثنا عمر بن الخطاب إلى الكوفة ، وشيعنا إلى موضع قرب المدينة يقال له : صرار ، قال : أتدرون لم مشيت معكم ؟ قال : قلنا : لحق صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولحق الأنصار . قال : لكنى مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به ، فأردت أن تحفظوه لمشاى معكم : إنكم تقدمون على قوم للقرآن فى صدورهم هزيز كهزيز المرجل ، فاذا رأوكم مدوا إليكم أعناقهم ، وقالوا أصحاب محمد ، فأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا شريككم »[1] وفى رواية : فلما قدم قرظة بن كعب قالوا : حدثنا ، فقال : نهانا عمر رضى الله عنه[2] .

وروى عن أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه أنه اتبع منهج الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومنع الإكثار من الرواية ، قال محمود بن لبيد : سمعت عثمان على المنبر يقول : لا يحل لأحد يروى حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أسمع به فى عهد أبى بكر ولا عهد عمر ، فإنه لم يمنعنا أن نحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن لا أكون أوعى لأصحابه عنه ، ألا إنى سمعته يقول :

---

(١) سنن ابن ماجه ص ٩ ج ١ وطبقات ابن سعد ص ٢ ج ٦ ، والهزيز : الصوت . وقوله وأنا شريككم أى شريككم فى الإقلال أى أنصحكم بذلك وأعمل بنصيحتى لا كما ذهب إليه السندى من أنه شريك فى الأجر بسبب أنه الدال الباعث لهم على الخير . انظر هامش ص ٩ ج ١ من سنن ابن ماجه ، ذلك لأن المقام لا يحتمله .

(٢) تذكر الحفاظ ص ٧ ج ١ وجامع بيان العلم ص ١٢٠ ج ٢ وشرف أصحاب الحديث ص ٩٧ : آ ، وانظر سنن الدارمى ص ٨٥ ج ١ ، وسنن البيهقى ص ١٢ ج ١ .

« من قالَ عليَّ ما لم أقلْ فقد تبوأ مقعدَه من النار »[1] .

وقد سبق لى أن بينت تطبيق الإمام على رضى الله عنه لمنهج الصحابة رضوان الله عليهم .

ويروى أن معاوية كان يقول : اتقوا الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما كان يذكر منها فى زمن عمر ، فإن عمر كان يخوف الناس فى الله تعالى[2] .

تلكم طريقة الصحابة ومنهجهم فى المحافظة على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خشية الوقوع فى الخطأ ، أو تسرب الدس إلى الحديث الشريف من الجهلاء وأصحاب الأهواء ، أو أن تحمل بعض الأحاديث على غير وجه الحق والصواب ، فيكون الحكم بخلاف ما أخذ به . فعلوا ذلك كله احتياطا الدين ورعاية لمصلحة المسلمين ، لا زهداً فى الحديث النبوى ولا تعطيلا له . فلا يجوز لإنسان أن يفهم من منهاج الصحابة ومن تشدد عمر خاصة — هجر الصحابة للسنة أو زهدهم فيها ، معاذ الله أن يقول هذا إلا جاهل أو صاحب هوى، لا علم له بقليل من السنة، ولم تخالط قلبَه روحُ الصحابة، ولا أنار سبيله قبس من هداهم ، فقد ثبت عن الصحابة جميعا تمسكهم بالحديث الشريف وإجلالهم إياه ، وأخذهم به ، وقد تواتر خبر اجتهاد الصحابة إذا وقعت لهم حادثة شرعية من حلال أو حرام ، وفزعهم إلى كتاب الله تعالى ، فإن وجدوا فيه ما يريدون تمسكوا به ، وأجروا (حكم الحادثة) على مقتضاه ، وإن لم

(١) قبول الأخبار ص ٢٩ . والحديث بإيجاز فى مسند الإمام أحمد ص ٣٦٣ جـ ١ باسناد صحيح .

(٢) رد الدارمى على بشر المريسى ص ١٣٥ ، وانظر تذكرة الحفاظ ص ٧ جـ ١ .

يجدوا ما يطلبون فزعوا إلى « السنة » ، فإن روى لهم خبر أخذوا به ، ونزلوا على حكمه ، وإن لم يجدوا الخبر فزعوا إلى الاجتهاد بالرأى[١] .

وطريقة أبى بكر وعمر فى الحكم مشهورة : كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر فى كتاب الله تعالى ، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به ، وإن لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن وجد فيها مايقضى به قضى به ، فإن أعياه ذلك سأل الناس : هل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فيه بقضاء ؟ فربما قام إليه القوم فيقولون : قضى فيه بكذا وكذا ، فإن لم يجد سنة سنها النبى صلى الله عليه وسلم جمع رؤساء الناس فاستشارهم[٢] .. وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك .

هكذا كان منهج الصحابة جميعا فى كل ما يرد عليهم ، وليس لأحد بعد هذا أن يتخذ بعض ما ورد عن الصحابة ذريعة لهواه . ونستعرض موقف بعض علماء الحديث من ذلك .

١ — رأى ابن عبد البر :

قال : (احتج بعض من لا علم له ولا معرفة من أهل البدع وغيرهم ، الطاعنين فى السنن ، بحديث عمر هذا قوله : « أقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » . . وجعلوا ذلك ذريعة إلى الزهد فى سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التى لا يوصل إلى مراد كتاب الله إلا بها ، والطعن على أهلها ولا حجة فى هذا الحديث ، ولا دليل على شىء مما ذهبوا إليه من وجوه قد ذكرها أهل العلم ، منها :

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستانى ص ٤٤٦ — ٤٤٧

(٢) إعلام الموقعين ص ٦٢ ج ١ عن كتاب القضاء لأبى عبيد

— أن وجه قول عمر إنما كان لقوم لم يكونوا أحصوا القرآن فخشى عليهم الاشتغال بغيره عنه ، إذ هو الأصل لكل علم . هذا معنى قول أبي عبيد في ذلك .

— وقال غيره إن عمر إنما نهى عن الحديث عما لا يفيد حكما ولا يكون سنة .

— وطعن غيرهم في حديث قرظة هذا ورده ، لأن الآثار الثابتة عن عمر خلافه ، منها ما روى مالك ومعمر وغيرهما عن ابن شهاب ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن عمر بن الخطاب ، في حديث السقيفة أنه خطب يوم جمعه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإني أريد أن أقول مقالة قد قدر لي أن أقولها ، من وعاها وعقلها وحفظها فليحدث بها حيث تنتهي به راحلته ، ومن خشي أن لا يعيها فإني لا أحل له أن يكذب علي . . .[1] وهذا يدل على أن نهيه عن الإكثار ، وأمره بالإقلال من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كان خوف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخوفا من يكونوا — مع الإكثار — يحدثون بما لم يتيقنوا حفظه ، ولم يعوه ، لأن ضبط من قلت روايته أكثر من ضبط المستكثر ، وهو أبعد من السهو والغلط الذي لا يؤمن مع الإكثار ، فلهذا أمرهم عمر بالإقلال من الرواية ، ولو كره الرواية ، وذمها لنهى عن الإقلال منها والإكثار ، ألا تراه يقول : فمن حفظها ووعاها فليحدث بها ، فكيف يأمرهم بالحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وينهاهم عنه ؟ هذا لا يستقيم ، بل كيف ينهاهم عن الحديث عن رسول الله صلى الله

---

(١) انظر هذا القول لعمر رضي الله عنه رواه الخطيب البغدادي عن ابن عباس في الكفاية ص ١٦٦

عليه وسلم ويأمرهم بالإقلال منه ، وهو يندبهم إلى الحديث عن نفسه ، بقوله : من حفظ مقالتى ووعاها فليحدث بها حيث تنتهى به راحلته؟ ثم قال : ومن خشى أن لايعيها فلا يكذب علىّ ، وهذا يوضح لك ماذكرنا ، والآثار الصحاح عنه من رواية أهل المدينة بخلاف حديث قرظة هذا ، وإنما يدور على (بيان[1]) عن (الشعبى) وليس مثله حجة فى هذا الباب ، لأنه يعارض السنن والكتاب .

قال الله عز وجل « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فى رَسولِ اللهِ أُسوَةٌ حَسنَةٌ[2] » وقال : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنهُ فَانتَهوا[3] » ..... ومثل هذا فى القرآن كثير ، ولا سبيل إلى اتباعه[4] والتأسى به ، والوقوف عند أمره ، إلا بالخبر عنه ، فكيف يتوهم أحد على عمر أنه يأمر بخلاف ما أمر الله به . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَضّر الله عبداً سمعَ مقالَتى فوعاها ، ثم أدّاها إلى مَنْ لم يسمعها ... الحديث » ، وفيه الحض الوكيد على التبليغ عنه صلى الله عليه وسلم ، وقال : « خُذوا عنى فى غَيرِ ما حَدّثتُ وبلّغوا عنى » ، والكلام فى هذا أوضح من النهار لأولى النهى والاعتبار . ولا يخلو الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يكون خيرا أو شرا . فإن كان خيرا ولا شك فى أنه خير فالإكثار من الخير أفضل ، وإن كان شرا — فلا[5]

---

(١) هو بيان بن بشر الاحمى أبو بشر الكوفى كما فى الخلاصة . وهو ثقة وطعن عبد البر فى روايته هذه لأنه خالف من هو أوثق منه . وهذا لا يمنع صحتها ، وأرى أن جميع ما ورد عن عمر غير متعارض كما أبينه بعد قليل وطعن ابن حزم فى حديث قرظة أيضاً ، وناقش نهى عمر رضي الله عنه عن الإكثار من التحدث مناقشة طيبة قريبة من مناقشة ابن عبد البر انظر الإحكام ص ١٣٧ ج ٢ وما بعدها .

(٢) ٢١ : الأحزاب (٣) ٧ : الحشر

(٤) أى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم

(٥) فى الأصل (ولا) وقد تكون خطأ من الناسخ فأثبتناها (فلا) لأن الفاء رابطة لجواب (إن) الشرطية .

يجوز أن يتوهم أن عمر يوصيهم بالإقلال من الشر[1]. وهذا يدلك أنه إنما أمرهم بذلك خوف مواقعة الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخوف الاشتغال عن تدبر السنن والقرآن، لأن المكثر لاتكاد تراه إلا غير متدبر ولا متفقه.

وذكر مسلم بن الحجاج فى كتاب التمييز ..... عن قيس بن عبادة قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: من سمع حديثا فأداه كما سمع فقد سلم. ومما يدلل على هذا ماذكرناه فيما يروى عن عمر أنه كان يقول: تعلموا الفرائض والسنة كما تتعلمون القرآن. فسوى بينهما، .... وكتب عمر تعلموا السنة والفرائض واللحن كما تتعلمون القرآن .... قالوا: اللحن معرفة وجوه الكلام وتصرفه والحجة به، وعمر هو الناشد للناس فى غير موقف بل فى مواقف شتى: مَنْ عنده علم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كذا، نحو ما ذكره مالك وغيره عنه فى توريث المرأة من دية زوجها، وفى الجنين يسقط ميتا عند ضرب بطن أمه وغير ذلك ... وكيف يتوهم على عمر ما توهمه الذين ذكرنا قولهم وهو القائل: «إياكم والرأى، فإن أصحاب الرأى أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها» ... وعمر أيضا هو القائل خير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القائل سيأتى قوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله ...

ويقول ابن عبد البر: «وقد يحتمل عندى أن تكون الآثار كلها عن عمر صحيحة متفقة، ويخرج معناها على أن من شك فى شىء تركه، ومن حفظ شيئا وأتقنه جاز له أن يحدث به، ولئن كان الإكثار يحمل الإنسان على التقحم فى

(١) انظر ما روى عن عمر رضى الله عنه فى الحرص على السنن إعلام الموقعين ص ٥٥ ج ١.

أن يحدث بكل ما سمع من جيد وردىء ، وغث وسمين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء كذباً أن يُحدّث بكل ما سَمِعَ » رواه مسلم ... ولو كان مذهب عمر ما ذكرنا ، لكانت الحجة فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم دون قوله ، فهو القائل : « نَضّر الله عبداً سَمِعَ مقالتى فوعاها ، ثم أداها وبلغها » ... وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « تَسمعونَ ويُسمَعُ منكم » ، رواه أبو داود والامام أحمد والحاكم . اهـ)[1] .

٢ — رأى الخطيب البغدادى :

قال الخطيب : (إن قال قائل : ماوجه إنكار عمر على الصحابة روايتهم[2] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتشديده عليهم فى ذلك ، قيل له : فعل ذلك عمر احتياطا للدين وحسن نظر للمسلمين ، لأنه خاف أن ينكلوا عن الأعمال ، ويتكلوا على ظاهر الأخبار ، وليس حكم جميع الأحاديث على ظاهرها ولا كل من سمعها عرف فقهها ، فقد يرد الحديث مجملا ويستنبط معناه وتفسيره من غيره ، فخشى عمر ، أن يحمل حديث على غير وجهه ، أو يؤخذ بظاهر لفظه والحكم بخلاف ما أخذ ، ونحو من هذا ، الحديث الآخر ... عن معاذ قال كنت ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على حمار له يقال له عُفَير فقال : « يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العبـــاد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به ، قلت أفلا

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ١٢١ ـ ١٢٤ ج ٢ باختصار .

(٢) لم ينكر عمر رضى الله عنه على الصحابه روايتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما أنكر الإكثار منها عند عدم الحاجة ، ولا يكون إكثار إلا عند عدم الحاجة إلى الإكثار .

أبشر الناس ؟ قال : لا ، فيتكلوا[١] » . . .

وأخبرنا الحسن بن أبي بكر ، قال : قال لنا أبو علي الطوماري كنا عند أبي العباس أحمد بن يحيى تغلب ، فقال له رجل : ايش معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي وقد أقبل أبو بكر وعمر فقال : « هذان سيدا كهول أهل الجنة[٢] ، لا تخبرهما يا علي » ، قال أشفق من التقصير في العمل . قال الشيخ أبو بكر الحافظ : وكذلك نهى عمر الصحابة أن يكثروا رواية الحديث ، إشفاقاً على الناس أن ينكلوا عن العمل إتكالا على الحديث .

وفي تشديد عمر أيضاً على الصحابة في رواياتهم — حفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وترهيب لمن لم يكن من الصحابة أن يدخل في السنن ما ليس منها ، لأنه إذا رأى الصحابي المقبول القول ، المشهور بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم ، قد تشدد عليه في روايته ، كان هو أجدر أن يكون للرواية أهيب[٣]) . وبهذا يسلم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يتطرق إليه الكذب ، ولا يزاد عليه ما ليس منه .

وروى الخطيب عن عبد الله بن عامر اليحصبي ، قال : (سمعت معاوية على المنبر بدمشق يقول : أيها الناس ، إياكم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حديثا كان يذكر على عهد عمر رضي الله عنه ، فإن عمر كان يخيف الناس

---

(١) ونحو هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذا رديفه على الرحل قال : يا معاذ بن جبل الحديث وقال في آخر الحديث وأخبر بها معاذ عند موته تأثما . انظر فتح الباري ص ٢٣٦ ج ١

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ص ٣٧ حديث ٦٠٢ ج ٢ ذكر نحوه باسناد صحيح وفيه زيادة (سيدا كهول أهل الجنة وشبابها بعد النبيين والمرسلين) .

(٣) شرف أصحاب الحديث ص ٩٧ — ٩٨ : ب

فى الله عز وجل »[١] . وإلى هذا المعنى الذى ذكرناه ذهب عمر فى طلبه من أبى موسى الأشعرى أن يحضر معه رجل يشهد أنه سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث السلام ، لكن فعله على الوجه الذى بيناه من الاحتياط ، لحفظ السنن والترهيب فى الرواية والله أعلم . انتهى[٢]) .

مما سبق يتبين لنا أن الصحابة جميعا كانوا يتثبتون فى الحديث ، ويتأنون فى قبول الأخبار وأدائها ، وكانوا لا يحدثون بشىء إلا وهم واثقون من صحة ما يروون ، وقد حرصوا على المحافظة على الحديث بكل وسيلة تفضى إلى ذلك ، فاتبعوا منهجا سليما يمنع الشوائب من أن تدخل السنة النبوية فتفسدها .

وقد حمل لواء هذه المحافظة والحرص على السنن جميع الصحابة ، وتميز منهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وقد ظهر لنا مما روى عنه اهتمامه بالسنة النبوية وإجلاله للحديث الشريف . وإن الأخبار التى رويت عنه فى هذا الشأن ليدعم بعضها بعضا فى سبيل نشر العلم والحرص على سلامة السنة ، ومن ثم ليس لأحد أن يرى تناقضا بين وصية عمر لأهل العلم والآثار الأخرى المروية عنه ، فهو إذا طلب الإقلال من الرواية فإنما يطلبه من باب الاحتياط لحفظ السنن والترهيب فى الرواية ، وأما من كان يتقن ما يحدث به ويعرف فقهه وحكمه فلا يتناوله أمر عمر رضى الله عنه ، فكل ما ورد عن أمير المؤمنين إنما يدل على المحافظة على السنة ونشرها وتبليغها صحيحة ، ولا يتيسر نشرها صحيحة ما لم يتثبت حاملوها من مروياتهم ، والإقلال من الرواية مظنة عدم

(١) انظر نحو هذا القول عن معاوية فى كتاب رد الدارمى على بشر المريسى ص ١٣٥ ، وتذكرة الحفاظ ص ٧ ج ١ .

(٢) شرف أصحاب الحديث ص ٩٩ : آ .

الوقوع فى الخطأ ، ولهذا أمر به رضى الله عنه . وهذا ما رآه ابن عبد البر و الخطيب البغدادى وغيرهما من أئمة الحديث ، وإليه أذهب ، وبه أقول ، فالصحابة لم يزهدوا فى السنة ، بل كان لهم الفضل الأول فى المحافظة عليها .

وقبل أن نختتم هذا الفصل لا بد لنا من أن نتعرض لما روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أنه حبس بعض الصحابة لأنهم أكثروا الرواية عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ! فنتناول هذا الخبر من حيث صحته ، ثم لو صح هذا الخبر فكيف كان ذلك الحبس ؟

روى الحافظ الذهبى[1] عن سعد بن ابراهيم عن أبيه أن عمر حبس ثلاثة : « ابن مسعود[2] ، وأبا الدرداء[3] ، وأبا مسعود الأنصارى[4] ، فقال : قد أكثرتم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . » هؤلاء ثلاثة من جلة أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأتقاهم وأورعهم . هل يعقل من مثل عمر بن الخطاب أن يحبسهم ؟ وهل يكفى لحبسهم أنهم أكثروا من الرواية ؟ .

---

(١) تذكرة الحفاظ ص ٧ ج ١ ، وفيه سعيد بن إبراهيم والصواب سعد ، وهو حفيد عبد الرحمن بن عوف كما فى تهذيب التهذيب ، والمحدث الفاصل ص ١٣٣ : آ ، وانظر مجمع الزوائد ص ١٤٩ ج ١ .

(٢) عبد الله بن مسعود الهذلى صحابى جليل من السابقين إلى الإسلام كان مخالطا لرسول الله (ص) وصاحب وساده وسواكه ونعليه ، وجهه عمر رضى الله عنه إلى الكوفة ـ وأمّن على أهلها به ـ ليفقههم فى الدين ويعلمهم القرآن ، وقد جمع القرآن فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقراءته مشهورة توفى سنة ٣٢ هـ فى المدينة . انظر بسط ترجمته فى سير أعلام النبلاء ص ٣٣١ ـ ٣٥٧ ج ١ .

(٣) أبو الدرداء هو عويمر بن مالك بن قيس صحابى أنصارى خزرجى كان حكيما ، ولى القضاء لمعاوية فى دمشق بأمر عمر بن الخطاب ، وهو أحد من حفظ القرآن فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفى فى الشام سنة ٣٢ ، انظر تاريخ الإسلام للذهبى ص ١٠٧ ج ٢ .

(٤) أبو مسعود الأنصارى هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصارى البدرى كان أصغر من شهد العقبة مع الأنصار ، توفى فى الكوفة سنة ٣٩ أو ٤٠ ، انظر خلاصة الخزرجى ، وتقريب التهذيب ص ٢٧ ج ٢ .

إن المرء ليقف مشدوها أمام هذا التطير ويعتريه الشك فيه ، ويتبادر إلى نفسه أن يتساءل عن الحد الذى يمكن أن يعرف به الإقلال والإكثار ! وقد ناقش الإمام ابن حزم هذا ورده، وقال: « هذا مرسل ومشكوك فيه من (شعبة) فلا يصح ، ولا يجوز الاحتجاج به ، ثم هو فى نفسه ظاهر الكذب والتوليد ، لأنه لا يخلو عمر من أن يكون اتهم الصحابة ، وفى هذا ما فيه ، أو يكون نهى عن نفس الحديث ، وعن تبليغ سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين ، وألزمهم كتمانها وجحدها وأن لا يذكروها لأحد ، فهذا خروج عن الاسلام ، وقد أعاذ الله أمير المؤمنين من كل ذلك ، ولئن كان سائر الصحابة متهمين بالكذب على النبى صلى الله عليه وسلم ، فما عمر إلا واحد منهم ، وهذا قول لا يقوله مسلم أصلا ، ولئن كان حبسهم وهم غير متهمين لقد ظلمهم ، فليختر المحتج لمذهبه الفاسد بمثل هذه الروايات الملعونة أى الطريقتين الخبيثتين شاء ، ولا بد له من أحدها ... »

ثم قال : « وقد حدث عمر بحديث كثير ، فإنه قد روى خمسمائة حديث ونيفا على قرب موته من موت النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو كثير الرواية ، وليس فى الصحابة أكثر رواية منه إلا بضعة عشر منهم[1] » .

ولو سلمنا جدلا بصحة الرواية فهناك خلاف فى المحبوسين ، فالذهبى يذكر ابن مسعود ، وأبا الدرداء ، وأبا مسعود الأنصارى ، بينما يذكر ابن حزم — ابن مسعود، وأبا الدرداء ، وأبا ذر ، فهل تكرر الحبس من عمر ؟ ولو تكرر لاشتهر ثم إن حادثة كهذه سيطير خبرها فى الآفاق من غير أن تحتمل الشك فى المحبوسين، لأنهم من أعيان الصحابة ، ولو سلمنا أن العبرة فى الحادثة نفسها من حيث حبسه

---

(١) الإحكام لابن حزم ص ١٣٩ ج ٢ وما بعدها .

بعض الصحابة، دون نظر إلى أعيانهم وأشخاصهم، لأنهم أكثروا الرواية، قلنا: قد كان غير هؤلاء أكثر منهم حديثاً، ولم يردنا خبر عن حبسهم، فلا يعقل أن يحبس أمير المؤمنين بعضا دون بعض فى قضية واحدة، هم فيها سواء، وهى الإكثار من الحديث، معاذ الله أن يفعل هذا عمر رضى الله عنه، فيحبس هؤلاء ويترك أبا هريرة مثلا وهو أكثر حديثاً منهم. فقد روى عن أبى هريرة (٥٣٧٤) خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعون حديثاً وعن ابن مسعود (٨٤٨) ثمانمائة وثمانية وأربعون حديثاً، وعن أبى الدرداء (١٧٩) مائة وتسعة وسبعون حديثاً، وعن أبى ذر (٢٨١) مائتان وواحد وثمانون حديثاً[١].

فإن قيل إن أبا هريرة لم يكثر من الرواية فى عهد عمر رضى الله عنه لأنه خشيه. فنقول لِمَ لَمْ يخشه هؤلاء؟ بل إن عمر نفسه سمح لأبى هريرة أن يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندما عرف ورعه وخشيته من الله عز وجل، روى الذهبى عن أبى هريرة قال: «بلغ عمر حديثى فأرسل إلى، فقال: كنت معنا يوم كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت فلان؟ قلت: نعم، وقد علمت لأىشىء سألتنى. قال: ولِمَ سألتك؟ قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال يومئذ: من كذب على متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار. قال: أما لا، فاذهب فحدث[٢]». فهل يتصور إنسان أن يحبس عمرُ ابنَ مسعود وأبا الدرداء وأبا ذر أو أبا مسعود الأنصارى وقد عرف حفظهم وورعهم؟ بل إن أمير المؤمنين امتن على أهل العراق كما أسلفنا عند ما أرسل

---

(١) ذكر ذلك الإمام الحافظ بقى بن مخلد فى مسنده، انظر البارع الفصيح فى شرح الجامع الصحيح لأبى البقاء الأحمدى الشافعى مخطوطة دار الكتب المصرية ص ٩-١٣: ب

(٢) سير أعلام النبلاء ص ٤٣٤ ج ٢

إليهم عبد الله بن مسعود فكتب إلى أهل الكوفة ؟ « إني والله الذي لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسي فخذوا منه [١] » وذكر عمرُ ابنَ مسعود فقال : كنيف ملىء علماً ، آثرت به أهل القادسية » [٢] كيف يأمر الناس بالأخذ منه ، ويشهد له بالعلم ، ثم يحبسه !! ؟

وما ورد على حبس ابن مسعود يرد على حبس الصحابة الباقين ، ففيهم أبو الدرداء إمام الشام وقاضيها ومعلمها القرآن ...

وبهذا البيان ، لا يرقى إلى الصحة خبر حبس عمر للصحابة رضى الله عنهم ، لأنهم أكثروا من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل إنه يروى عن ابن مسعود أنه نهى عن الاكثار من الرواية ، فهل يتصور منه أن ينهى عن شيء وهو يفعله ؟ وقد روى عنه قوله : « ليس العلم بكثرة الحديث ، ولكن العلم الخشية [٣] » .

وفى رواية سعد بن إبراهيم عن أبيه ، التى ذكرها الخطيب ، ما يدل على أنه استبقاهم فى المدينة حتى عرف لفظهم سواء . وهذه هى رواية الخطيب .

قال : بعث عمر بن الخطاب إلى عبد الله بن مسعود وإلى أبى الدرداء ، وإلى أبى مسعود الأنصارى فقال : ما هذا الحديث الذى تكثرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فحبسهم بالمدينة حتى استشهد لفظهم سواء [٤] . فيكون هذا من باب تثبت عمر رضى الله عنه فى الحديث ، وهذه الرواية تثبت أنه لم يزج بهم فى السجن ، بل استبقاهم فى المدينة ربما يتثبت من لفظهم ، فإن صح هذا فلا ضير عليهم .

---

(١) و (٢) سير أعلام النبلاء ص ٣٥١ جـ١ ، والكنيف : الوعاء .

(٣) مختصر كتاب المؤمل فى الرد إلى الأمر الأول ص ٦

(٤) شرف أصحاب الحديث ص ٩٧ : آ .

ومما يؤكد لنا أنه لم يحبس أحدا — وهو ما استنبطناه من مناقشة الروايات السابقة — ما يرويه الرامهرمزى عن شيخه ابن البرى من طريق سعد بن إبراهيم عن أبيه : (أن عمر بن الخطاب حبس بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فيهم ابن مسعود وأبو الدرداء فقال : قد أكثرتم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أبو عبد الله بن البرى : يعنى منعهم الحديث ولم يكن لعمر حبس[1]) فقد فسر ابن البرى الخبر تفسيرا جيدا وإن جاء مقتضبا ، فهو يريد أنه منعهم كثرة الحديث ، خوفا من أن لا يتدبر السامعون كلام رسول الله عليه الصلاة والسلام إذا كثر عليهم .

كل ماسبق ينفى صحة ماورد من أخبار حول حبس عمر رضى الله عنه للصحابة لأنهم أكثروا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى عهد التابعين ازداد النشاط العلمى لانتشار الصحابة فى الأمصار ، ثم ما لبث التابعون أن تصدروا للرواية ، ومع هذا سلكوا سبيل الصحابة ، وساروا على نهجهم ، فكانوا على جانب عظيم من الورع والتقوى ، وليس بعيدا ما نقول، لأنهم تخرجوا فى مدارس الصحابة تلامذة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فنسمع الشعبى — وهو أحد كبار التابعين الحفاظ الثقات — يقول : ليتنى أنفلت من علمى كفافا لا لى ولا على[2] . وكأنه يشعر بأنه أكثر من التحديث فيقول: « كرة الصالحون الأولون الاكثار من الحديث ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ماحدثت إلا بما أجمع عليه أهل الحديث[3] » . وكان شعبة ابن

(١) المحدث الفاصل ص ١٣٣ : آ

(٢) جامع بيان العلم ص ١٣٠ جـ ٢ ويروى نحوه عن سفيان الثورى انظر : الكامل ص ٥ : ب . جـ ٣ فى المجلد الأول فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٩٥) مصطلح الحديث . وجامع بيان العلم وفضله ص ١٢٩ جـ ٢

(٣) تذكرة الحفاظ ص ٧٧ جـ ١

لحجاج يقول : التدليس فى الحديث أشد من الزنا ، ولأن أسقط من السماء إلى الأرض أحب إلى من أن أدلس[١] . وفى رواية عنه أنه كان يقول : لأن أقع من فوق هذا القصر — لدار حياله[٢] — على رأسى أحب إلى من أن أقول لكم: قال فلان ، لرجل ترونه ، أنى قد سمعت ذاك منه ولم أسمعه[٣] .

ومنهم من كان يقتصد فى رواية الحديث على طلابه ليفهموا ما يحدثهم به ويعقلوه ويتدبروه ، ومن هذا ما رواه خالد الحذاء قال كنا نأتى أبا قلابة ، فإذا حدثنا بثلاثة أحاديث قال : قد أكثرت[٤] ، ويؤكد هذا ما قاله ابن عبد البر : « إنما عابوا الإكثار خوفا من أن يرتفع التدبر والتفهم ، ألا ترى إلى ما حكاه بشر بن الوليد عن أبى يوسف قال : « سألنى الأعمش عن مسألة وأنا وهو لا غير فأجبته ، فقال لى : من أين قلت هذا يا يعقوب ؟ فقلت : بالحديث الذى حدثتنى أنت ، ثم حدثته ، فقال لى : يا يعقوب ، إنى لأحفظ هذا الحديث من قبل أن يُجمع أبواك[٥] ماعرفت تأويله إلى الآن[٦] » وروى نحو هذا : أنه جرى بين الأعمش وأبى يوسف وأبى حنيفة ، فكان من قول الأعمش : « أنتم الأطباء ونحن الصيادلة[٧] » .

* * *

(١) مقدمة التمهيد ص ٥ : ب

(٢) هكذا النص والمعنى فدار قريبة منه .

(٣) مقدمة الجرح والتعديل ص ١٧٤ ، ويروى نحوه عن معارف بن طريف انظر نفس المصدر ص ٤٢ .

(٤) انظر المحدث الفاصل ص ١٤٥ — ١٤٦

(٥) أى من قبل أن يخلق ، كناية عن أنه حفظه منذ زمن بعيد .

(٦) هكذا النص والأصوب أن تكون إلا .

(٧) جامع بيان العلم وفضله : ص ١٣٠ ج ٢

تثبت الصحابة والتابعين فى قبول الحديث

وكما احتاط الصحابة والتابعون فى التحديث ، احتاطوا وتثبتوا فى قبول الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنعرض هذا فيما يلى :

(١) تثبت أبى بكر الصديق فى قبول الأخبار :

كان أبو بكر رضى الله عنه قدوة حسنة للمسلمين فى المحافظة على السنة ، والتثبت فى قبول الأخبار خشية أن يقع ويقع المسلمون فى خطأ يؤدى بهم إلى مالا تحمد عقباه . وسأورد بعض الأخبار التى تبين لنا طريق الصحابة ومنهجهم فى ذلك .

١ — قال الحافظ الذهبى : كان أبو بكر رضى الله عنه ، أول من احتاط فى قبول الأخبار ، فروى ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت إلى أبى بكر تلتمس أن تورث ، فقال : ما أجد لك فى كتاب الله شيئاً ، وما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لك شيئا ، ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيها السدس ، فقال له : هل معك أحد فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه لها أبو بكر رضى الله عنه (١) .

٢ — عن يونس « بن يزيد (٢) » عن الزهرى أن أبا بكر حدث رجلا

---

(١) تذكرة الحفاظ ص ٣ ج ١ ومعرفة علوم الحديث ص ١٥ ، والكفاية ص ٢٦ ، وقد أخرجه الإمام مالك فى الموطأ ص ٥١٣ ج ٢ ، كما أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه .

(٢) يونس بن يزيد بن أبى النجاد سمع من الزهرى انظر ص ١٥٣ ج ١ من تذكرة الحفاظ

حديثاً فاستفهمه الرجل إياه ، فقال أبو بكر هو كما حدثتك : أى أرضى تقلنى إذا أنا قلت ما لم أعلم ! ؟

وصح أن الصديق خطبهم فقال : (إياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، والفجور يهدى إلى النار)[1] . فأبو بكر يبين للناس جميعاً أنه لا يحدث إلا بما يعلم ويثق منه ، ثم إنه لم يكتف بالحيطة لنفسه ، بل أمر الناس بذلك أيضاً ، وحثهم على التثبت فيما يحدثون به أو يستمعونه ، ومن ذلك ما رواه الذهبى من مراسيل ابن أبى مليكة : (أن الصديق جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال : إنكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها ، والناس بعدكم أشد اختلافا ، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً ، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله ، فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه) . ثم قال الحافظ الذهبى : (يدلك (هذا) أن مراد الصديق التثبت فى الأخبار والتحرى ، لا سد باب الرواية ، ألا تراه لما نزل به أمر الجدة ولم يجده فى الكتاب كيف سأل عنه فى السنن ، فلما أخبره ما اكتفى حتى استظهر بثقة آخر ، ولم يقل حسبنا كتاب الله كما تقوله الخوارج)[2] .

(ب) تثبت عمر بن الخطاب فى قبول الأخبار :

١ — روى الإمام البخارى عن ابى سعيد الخدرى قال : « كنت فى مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور ، فقال : استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت فقال : ما منعك ؟ قلت : استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى

---

(١) تذكرة الحفاظ ص ٤ ج ١ ، وفى مقدمة التمهيد ص ١١ قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : إياكم والكذب فانه مجانب الإيمان .

(٢) تذكرة الحفاظ ص ٣ — ٤ ج ١ .

فرجعت ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع » . فقال : والله لتقيمن عليه ببينة[١] ، أمنكم أحد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبي بن كعب : والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم ، فكنت أصغر القوم ، فقمت معه ، فأخبرت عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك »[٢] فقال عمر لأبي موسى : أما إني لم أتهمك ، ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] .

٢ — روى مسلم عن المِسْوَر بن مخْرَمة قال : استشار عمر بن الخطاب الناس في ملاص المرأة[٤] ، فقال المغيرة بن شعبة : شهدت النبي صلى الله عليه وسلم قضى فيه بغرة[٥] : عبد أو أمة . قال : فقال عمر ائتني بمن يشهد معك . قال : فشهد له محمد بن مسلمة[٦] .

٣ — روى صفوان بن عيسى : أخبرنا محمد بن عمار عن عبد الله بن أبي بكر قال : كان للعباس بيت في قبلة المسجد ، فضاق المسجد على الناس فطلب إليه

---

(١) وفي رواية مسلم : فقال عمر : أنم عليه البينة ، وإلا أوجعتك .

(٢) صحيح البخاري بحاشية السندي ص ٨٨ ج ٤ ، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ص ١٦٩٤ ج ٣ . كما أخرجه الإمام مالك في الموطأ ص ٩٦٤ ج ٢ ، وانظره موجزا في الرسالة للامام الشافعي ص ٤٣٥ .

(٣) موطأ الإمام مالك ص ٩٦٤ ج ٢ والرسالة ص ٤٣٥

(٤) ملاص : هو جنين المرأة ، والمعروف في اللغة املاص المرأة . يقال أملصت به إذا وضعته قبل أوانه . انظر هامش ص ١٣١١ ج ٣ من صحيح مسلم .

(٥) الغرة بضم الغين وراء مشددة مفتوحة : العبد والأمة ، فكأنه عبر في الحديث عن الجسم كله . كقوله رقبة ، وأصل الغرة بياض في جبهة الفرس ، وغرة كل شيء أوله وأكرمه . انظر هامش ص ١٣١١ ج ٣ من صحيح مسلم ، ولسان العرب مادة (غرر) .

(٦) صحيح مسلم ص ١٣١١ ج ٣ .

عمر البيع فأبى فذكر الحديث[1] وفيه فقال عمر لأبى لتأتينى على ما تقول ببينة ، فخرجا فإذا ناس من الأنصار قال : فذكرهم ، قالوا : قد سمعنا هذا[2] من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : أما إنى لم أتهمك ، ولكنى أحببت أن أتثبت[3] .

٤ — عن مالك بن أوس قال : سمعت عمر يقول لعبد الرحمن بن عوف

---

(١) وفيه كما رواه ابن سعد عن سالم أبى النضر أن عمر قال له : اخترمنى احدى ثلاث : إما أن تبيعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين ، وإما أن أخططك حيث شئت من المدينة وأبنيها لك من بيت مال المسلمين ، وإما أن تصدق بها على المسلمين فتوسع بها فى مسجدهم ، فقال : لا ولا واحدة منها ، فقال عمر : بينى وبينك من شئت ، فقال : أبى بن كعب . فانطلقا إلى أبى ، فقصا عليه القصة ، فقال أبى : إن شئتما حدثتكما بحديث سمعته من النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالا : حدثنا . فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله أوحى إلى داود أن ابن لى بيتا أذكر فيه ، فخط له هذه الخطة خطة بيت المقدس ، فاذا تربيعها بيت رجل من بنى اسرائيل ، فسأله داود أن يبيعه إياه ، فأبى فحدث داود نفسه أن يأخذه منه فأوحى الله إليه أن يا داود أمرتك أن تبنى لى بيتا أذكر فيه ، فأردت أن تدخل فى بيتى الغصب ، وليس من شأنى الغصب ، وإن عقوبتك أن لا تبنيه . قال : يارب فمن ولدى . قال : من ولدك . قال : فأخذ عمر بجامع ثياب أبى بن كعب وقال : جئتك بشىء فجئت بما هو أشد منه ، لتخرجن مما قلت . فجاء يقوده حتى أدخله المسجد فأوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم أبو ذر ، فقال : إنى نشدت الله رجلا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر حديث بيت المقدس حين أمر الله داود أن يبنيه إلا ذكره ، فقال أبو ذر : أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال آخر : أنا سمعته ، وقال آخر أنا سمعته يعنى من الرسول صلى الله عليه وسلم . قال : فأرسل عمر أبيا . قال : وأقبل أبى على عمر فقال : يا عمر أتتهمنى على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : يا أبا المنذر ، لا والله ما اتهمتك عليه ، ولكنى كرهت أن يكون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا ، وقال عمر للعباس : اذهب فلا أعرض لك فى دارك ، فقال العباس : أما إذا فعلت هذا ، فانى قد تصدقت بها على المسلمين أوسع بها عليهم فى مسجدهم ، فأما وأنت تخاصمنى فلا ، فخط عمر لهم دارهم التى هى لهم اليوم ، وبناها من بيت مال المسلمين .

انظر طبقات ابن سعد ص ١٣ — ١٤ قسم ١ ج ٤ وص ٢٠٣ قسم ١ ج ٣ .

(٢) أى حديث بناء بيت المقدس الذى ذكره أبى بن كعب .

(٣) تذكرة الحفاظ ص ٨ ج ١ وانظر طبقات ابن سعد ص ١٣ — ١٤ قسم ١ ج ٤

وطلحة والزبير وسعد : نشدتكم بالله الذي تقوم السماء والأرض به أعلمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنا لا نُورَثُ ما تركنا صدقة » ؟ قالوا : اللهم نعم[1] .

(ج) تثبت عثمان رضي الله عنه في الحديث :

عن بسر بن سعيد قال : أتى عثمانَ المقاعد ، فدعا بوضوء ، فتمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثا ، ويديه ثلاثا ثلاثا ، ثم مسح برأسه، ورجليه ثلاثا ثلاثا ، ثم قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا يتوضأ ، ياهؤلاء أكذاك ؟ قالوا : نعم ، لنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده[2] .

(د) تثبت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الحديث :

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعني الله بما شاء منه . وإذا حدثني غيره استحلفته ، فإذا حلف لي صدقته ، وإن أبا بكر حدثني ، وصدق أبو بكر ، أنه سمع النبي عليه الصلاة والسلام قال : « ما من رجل يذنبُ ذنباً فيتوضأ فيحسنُ الوضوء ، ويصلي ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له[3] » .

* * *

تلك آثار تبين منهج الصحابة في التثبت والتأكد من الأخبار ، وهذا لا يعني أبداً أن الصحابة اشترطوا لقبول الحديث ، أن يرويه راويان فأكثر .

---

(١) مسند الإمام أحمد ص ٢٢٨ و ص ١٨٦ و ١٨٧ جـ ١ باسناد صحيح

(٢) مسند الإمام أحمد ص ٣٧٢ جـ ١ باسناد صحيح

(٣) المرجع السابق ص ١٥٤ و ١٧٤ و ١٧٨ جـ ١ ونحوه في الكفاية ص ٢٨ ، وانظر تذكرة الحفاظ ص ١٠ جـ ١ ومقدمة معرفة علوم الحديث . ورواه مسلم .

أو أن يشهد الناس على الراوى أو أن يستحلف ، فإذا لم يحصل شيء من هذا رد خبره ! ! بل كان الصحابة يتثبتون فى قبول الأخبار ، ويتبعون الطريقة التى ترتاح إليها ضمائرهم ، فأحياناً يطلب عمر سماع آخر ، وأحياناً يقبلُ الخبر من غير ذلك ، ولا يقصد من وراء عمله إلا حمل المسلمين على جادة التثبت العلمى والتحفظ فى دين الله حتى لا يتقول أحد على الرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يقل ، ويتضح هذا فى قول عمر رضى الله عنه عندما رجع أبو موسى الأشعرى مع أبى سعيد الخدرى وشهد له ، قال عمر : « أما إنى ، لم أتهمك ، ولكنى خشيت أن يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] » . ويظهر ذلك أيضا من قول الذهبى بعد أن روى قصة أبى موسى : « أحب عمر أن يتأكد عنده خبر أبى موسى بقول صاحب آخر ففى هذا دليل على أن الخبر إذا رواه ثقتان كان أقوى وأرجح مما انفرد به واحد ، وفى ذلك حض على تكثير طرق الحديث لكى يرتقى عن درجة الظن إلى درجة العلم ، إذ الواحد يجوز عليه النسيان والوهم ، ولا يكادُ يجوز ذلك على ثقتين لم يخالفهما أحد [2] . »

وكذلك ما قاله بعد إيراد طريقة الصديق فى التثبت : « إن مراد الصديق التثبت فى الأخبار والتحرى ، لا سد باب الرواية [3] » .

وكما طلب الصحابة من الراوى شهادة غيره أيضاً ، قبلوا أحاديث كثيرة برواية الآحاد وبنوا عليها أحكامهم .

ومن الغريب أن يجعل بعض المتطرفين فى الإسلام عمل الصحابة هذا دستوراً فى قبول الأخبار ولا يجعلون قبول الصحابة خبر الآحاد دستوراً لهم

---

(١) موطأ مالك ص ٩٦٤ جـ ٢ والرسالة ص ٤٣٥ وتوجيه النظر ص ١٦

(٢) تذكرة الحفاظ ص ٦ ـ ٧ جـ ١

(٣) المرجع السابق ص ٤ جـ ١

أيضا بل يردونه ولا يقبلونه، وقد حكى ذلك الحافظ أبو بكر محمد بن أبي عثمان الحازمي[١] عن بعض متأخري المعتزلة ، كما حكى عن بعض أصحاب الحديث ، قال شيخ الإسلام (ابن حجر) : « وقد فهم بعضهم ذلك من خلال كلام الحاكم في (علوم الحديث) ، وفي (المدخل) ... وأعجب من ذلك ما ذكره أبو حفص عمر بن عبد المجيد الميانجي[٢] في كتاب « ما لا يسع المحدث جهله » «شَرْطُ الشيخين في صحيحهما أن لا يدخلا فيه »[٣] إلا ما صح عندهما ، وذلك ما رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم إثنان فصاعدا ، وما نقله عن كل واحد من الصحابة أربعة من التابعين فأكثر . وأن يكون[٤] عن كل واحد من التابعين أكثر من أربعة » انتهى .

قال شيخ الإسلام : « وهو كلام من لم يمارس الصحيحين أدنى ممارسة ، فلو قال قائل ليس في الكتابين (البخاري ومسلم) حديث واحد بهذه الصفة لما أبعدَ ، وقال ابن العربي في شرح الموطأ : كان مذهب الشيخين : (البخاري ومسلم) أن الحديث لا يثبت حتى يرويه اثنان ، قال : وهو مذهب باطل ، بل رواية الواحد عن الواحد صحيحة إلى النبي صلى الله عليه وسلم[٥] »

---

(١) المتوفى سنة (٥٨٤ هـ)

(٢) المتوفى سنة (٥٨٠ هـ)

(٣) هكذا في التدريب والأصوب أن يقول « فيهما » .

(٤) هكذا في التدريب ، والأصوب أن يقول : (وكان رواته) .

(٥) تدريب الراوي ص ٢٧ . وقد قال باشتراط رجلين عن رجلين في شرط القبول ابراهيم ابن إسماعيل بن علية (وهو اسماعيل بن مقسم الأسدي حافظ من الطبقة الثامنة نسب إلى أمه، وهو ثقة كما في التقريب) توفي سنة ١٩٣ هـ وهو من الفقهاء المحدثين ، إلا أنه مهجور القول عند الأئمة لميله إلى الاعتزال ، وقد كان الشافعي يرد عليه ويحذر منه . انظر تدريب الراوي ص ٢٨ .

ويقول الدكتور السباعى : « وانتقل هذا الفهم — (أن لا يقبل الصحابة إلا ما رواه اثنان) — إلى كثير ممن كتب فى تاريخ التشريع الإسلامى وتاريخ السنة فى العصر الحديث ، فأصبح عندهم قضية مسلمة لا يذكرون غيرها ، وممن ذهب إلى هذا أساتذتنا الأجلاء مؤلفو مذكرة تاريخ التشريع الإسلامى فى كلية الشريعة بالأزهر فقد ذكروا فى باب شروط الأئمة للعمل بالحديث أن هذا كان شرط أبى بكر ، وعمر ، وعلى ، للعمل بالحديث[1] » .

إن تثبت الصحابة فى بعض الأحاديث بطلب راويين للخبر لم يكن شرطاً لقبول جميع المرويات ، بل قبلوا أخباراً كثيرة عن مخبر واحد ، وعملوا بها فى مواضع كثيرة ، مما يدل على أنهم رضى الله عنهم كانوا يطلبون الراوى الثانى لمجرد التثبت والتأكد ، لا لأن الخبر لا يثبت عندهم إلا براويين ، والأخبار التى قبلها الخلفاء الأربعة وغيرهم برواية آحاد أكثر بكثير من الأخبار التى طلبوا فيها راويين ، وإليكم بعض تلك الآثار :

١ — عن سعيد بن المسيب : « أن عمر بن الخطاب كان يقول : الدية للعاقلة ، ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئاً . حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن رسول الله كتب إليه : أن يورثَ امرأةَ أشْيَم الضِّبابيّ من ديته ، فرجع إليه عمر[2] » .

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص٨١ . ذكر الأساتذة مؤلفو تاريخ التشريع الإسلامى بالحرف الواحد « أما الآحاد فلمقام الشبهة فى ثبوته اختلفت طرق الصحابة فى الأخذ به ، فلم يكن أبو بكر ولا عمر يقبلان من الأحاديث إلا ما شهد إثنان أنهما سمعاه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » انظر الصفحة ٩٣ من تاريخ التشريع الإسلامى للسبكى وزملائه وهذا التعميم غير مطابق للواقع كما سنرى .

(٢) الرسالة ص ٤٢٦ ، الفقرة ١٢٦٢ .

٢ — عن طاوس : « أن عمر قال : أذكرُ اللهَ امرأً سمع من النبي فى الجنين شيئاً ؟ فقام حَمَلُ بن مالك بن النابغة ، فقال : كنت بين جاريتين لى ، يعنى ضرتين ، فضربت إحداهما الأخرى بمسطح[١] ، فألقت جنيناً ميتاً ، فقضى فيه رسول الله بغرة ، فقال عمر : لو لم أسمع فيه لقضينا بغيره[٢] » .

٣ — « عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام . حتى إذا كان بسرغ لقيه أهل الأجناد[٣] أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام[٤] » .

واستشار المهاجرين والأنصار ومشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، واختلفت آراؤهم حتى جاءه عبد الرحمن بن عوف ، وكان متغيباً فى بعض حاجته ، فقال : « إن عندى من هذا علماً ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا فراراً منه[٥] » فرجع عمر رضى الله عنه بالناس لخبر عبد الرحمن رضى الله عنهم جميعاً .

٤ — روى الإمام الشافعى عن الإمام مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه (على زين العابدين) : أن عمر ذكر المجوس فقال : ما أدرى كيف أصنع فى

---

(١) المسطح : عود من أعواد الخباء والفسطاط .

(٢) الغرة : العبد أو الأمة . الرسالة ص ٤٢٦ — ٤٢٧ ، الفقرة ١١٧٤ .

(٣) سرغ هى قرية فى طرف الشام مما يلى الحجاز . والأجناد : المراد بها هنا مدن الشام الخمسة ، وهى فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين . قال الإمام النووى : هكذا فسروه واتفقوا عليه ، ومعلوم أن فلسطين اسم لناحية بيت المقدس ، والأردن اسم لناحية بيسان وطبرية وما يتعلق بهما ، ولا بصر : إطلاق اسم المدينة عليه . انظر هامش الصفحة ١٧٤٠ فى ج ٤ من صحيح مسلم

(٤) صحيح الإمام مسلم ص ١٧٤٠ ج ٤ وخص الخبر الإمام الشافعى فى رسالته ص ٤٢٩ فقره ١١٨٠ ، وانظر الإحكام لابن حزم ص ١٣ ج ٢

(٥) صحيح الإمام مسلم ص ١٧٤٠ ج ٤

أمرهم ؟ فقال له عبد الرحمن بن عوف : أشهد لسمعت رسول الله يقول : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب[١] » .

٥ — وقبل عمر بن الخطاب خبر سعد بن أبي وقاص فى المسح على الخفين ، وأمر ابنه عبد الله ألا ينكر عليه وقال له : (إذا حدثك سعد بشيء فلا ترد عليه ، فإن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يمسح على الخفين[٢]) .

وفى رواية (إذا حدثك سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فلا تسأل عنه غيره[٣]) . وهذا دليل واضح على قبول خبر الآحاد ، حتى إن عمر ينهى ابنه عن أن يسأل غير سعد إذا حدثه سعد عن رسول الله . ولو كان شرط عمر عدم قبول الخبر إلا عن راويين لأمر ابنه أن يطلب مع سعد راويا آخر ، ولم ينهه عن سؤال غيره .

٦ — وأراد رجم مجنونة حتى أعلم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رفع القلم عن ثلاث[٤] » ، فأمر ألا ترجم .

وأمر برجم مولاة حاطب ، حتى ذكره عثمان بأن الجاهل لا حد عليه ، فأمسك عن رجمها[٥] .

---

(١) الرسالة : ٤٣٠ فقرة ١١٨٢ وانظر الكفاية فى علم الرواية ص ٢٧ والإحكام ص ١٣ ج ٢

(٢) مسند الإمام أحمد ص ١٩١ حديث ٨٧ ج ١ وفى ص ١٩٢ مختصراً وكلاهما باسناد صحيح

(٣) مسند الإمام أحمد ص ١٩٢ حديث ٨٨ ج ١ باسناد صحيح

(٤) أخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم عن السيدة عائشه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ وعن المبتلي حتى يبرأ وعن الصبي حتى يكبر » الجامع الصغير ص ٢٣ ج ٢ باسناد صحيح . وأخرج الأمام أحمد وأبو داود والحاكم عن عمر وعلى رضي الله عنهما عن الرسول صلى الله عليه وسلم « رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يحتلم » المرجع نفسه .

(٥) الإحكام لابن حزم ص ١٣ ج ٢ .

٧ — وكان يفاضل بين ديات الأصابع حتى بلغه عن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بالمساواة بينها ، فترك قوله وأخذ بالمساواة[١] .

٨ — وقد اشتهر خبر تناوب عمر رضى الله عنه وجاره فى حضور حلقات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيه يقول عمر : (ينزل يوما ، وأنزل يوما ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك[٢]) وهذا إقرار من أمير المؤمنين رضى الله عنه بقبول خبر جاره ، ولا فرق بين جاره وغيره ممن تقبل روايته .

وهكذا نرى من تلك الأخبار وغيرها أن عمر رضى الله عنه لم يشترط لقبول الأخبار راويين ، وما صدر منه مع أبى موسى رضى الله عنه بَيَّنَ سببه بنفسه كما سبق أن ذكرت ذلك ، وكان من باب الاحتياط والتثبت ، لا من باب عدم قبول الخبر إلا من راويين .

ومثل هذا يقال فى بقية الأخبار التى طلب فيها راويين .

وأما ما ذكر عن موقف أبى بكر رضى الله عنه ، وتثبته فى قبول الأخبار ، فإنه لا يعدو باب الاستظهار والاستيثاق ، ثم إنه لم يرو عنه أنه طلب راويا آخر إلا فى تلك الحادثة التى ذكرها الإمام الذهبى ، وقد ردها ابن حزم[٣] وأعلها بالانقطاع ، فهى لا تصلح مقياسا صحيحا لشرط أبى بكر فى قبول الأخبار ، وهو

---

(١) الإحكام لابن حزم ص ١٣ ج ٢ وانظر الرسالة ص ٤٢٢ فقره ١١٦٠ ، إلا أن الشافعى ينص على أن الصحابة بعد وفاة عمر رضى الله عنه وجدوا كتاب آل عمرو بن حزم وفيه أن رسول الله قال : « وفى كل اصبع مما هنالك عشر من الأبل » فصاروا إليه . انظر الفقرة (١١٦٢) من الصفحة ٤٢٢

(٢) فتح البارى ص ١٩٥ ج ١ .

(٣) انظر الإحكام لابن حزم ص ١٤١ ج٢ .

الذى قبل أخبارا كثيرة برواية مخبر واحد .

وقد سبق أن بينت منهجه فى حكمه وقضائه كما ذكره ابن القيم ، ولم يذكر أنه كان يطلب ممن يأتيه بالخبر شاهدا على ما يقول . . وقد قبل خبر عائشة رضى الله عنها فى كفن الرسول صلى الله عليه وسلم[١] .

وأما عثمان رضى الله عنه فإنه لم يطلب راويين لكل خبر ، وكل ما صدر عنه أنه استشهد بعض من حضر وضوءه ، ليؤكد أنه توضأ وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ثبت عنه أنه عمل بأخبار الآحاد ، فقد سأل الفُرَيْعَةَ بنت مالك بن سنان — أخت أبى سعيد الخدرى — عن عدتها لوفاة زوجها[٢]، وقضى بخبرها .

وأما ما روى عن على رضى الله عنه من استحلاف مخبريه ، فإن هذا لم يكن منهجه وديدنه فى قبول جميع الأخبار ، بل قبل بعض الأخبار من غير أن يستحلف الرواة ، فقبل أخبار أبى بكر — كما ذكر هو نفسه — ولا فرق بين أبى بكر رضى الله عنه وغيره ممن تقبل روايته ، كما عمل بخبر المقداد بن الأسود فى حكم المذى[٣] من غير أن يحلفه .

وهكذا يتبين لنا أن الخلفاء الأربعة لم تكن لهم شروط خاصة لقبول الأخبار ، وأن كل ما روى عنهم مما يوهم ذلك لا يعدو التثبت والاستظهار ، وقد قبلوا أخبار الآحاد كما قبلها غيرهم من عامة الصحابة وعلمائهم . وكل ما صدر

---

(١) الإحكام لابن حزم ص ١٢ ج ٢ .

(٢) أخرج حديث فريعة أحمد وأصحاب السنن الأربعة وصححه الترمذى والقعلى . انظر سبل السلام ص ٢٠٣ ج ٣ ، وانظر الكفاية ص ٢٧ والإحكام ص ١٥ ج ٢

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ص ٣٩ حديث ٦٠٦ و ص ٤٦ حديث ٦١٨ ج ٢ باسناد صحيح ، وفتح البارى ص ٢٩٤ و ٣٩٤ ج ١ ، وصحيح مسلم ص ٢٤٧ حديث ١٧ — ١٩ ج ٦

عنهم كان فى سبيل المحافظة على السنة الطاهرة .

(هـ) ولم يكن التابعون وأتباعهم أقل اهتماما من الصحابة بالاحتياط لقبول الحديث ، فكانوا يتثبتون من الراوى بكل وسيلة تطمئن إليها قلوبهم ، وإن من يتتبع تاريخ الرواة ، وكيفية تحملهم الحديث الشريف ليدرك تماما جهود التابعين وأتباعهم ، تلك الجهود التى بذلوها لنقل السنة إلى خلفهم . وإليكم بعض أخبارهم فى هذا الموضوع :

قيل لمسعر بن كدام : ما أكثر تشككك ؟ قال: تلك محاماة عن اليقين[١] .

وكان يزيد بن أبى حبيب محدث الديار المصرية يقول : إذا سمعتَ الحديث فانشده كما تنشد الضالة ، فإن عرف فخذه ، وإلا فدعه[٢] .

فلم يكن للتابعين وأتباعهم شروط خاصة فى قبول الرواية ، ولم يُروعن أحدهم أنه اشترط لقبول الخبر راويين أو أكثر ، بل كانوا يتحملون عن كل من توافرت فيه شروط التحمل والأداء ، إلى جانب العدالة التى أجمع عليها المحدثون ، فإذا ما سقطت عدالة راو طرحوا أخباره وامتنعوا عن الأخذ عنه . ومع هذا كانوا يتثبتون فى قبول الأخبار بكل وسيلة تطمئن إليها قلوبهم ، لأن وصايا الصحابة وكبار التابعين لا تزال قائمة فى نفوسهم ، تذكرهم أن هذا الحديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم .

وكانوا يرون الأمانة فى الذهب والفضة أيسر من الأمانة فى الحديث[٣] ، فتسمع عن سليمان بن موسى أنه لقى طاوساً فقال له : « إن رجلا حدثنى بكيت

---

(١) المحدث الفاصل ص ١٣٢ : ب

(٢) الجرح والتعديل ص ١٩ ج ١

(٣) انظر الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٦٠ : آ

وكيت ، فيقول له : إن كان ملياً فخذ منه[١] » . وكان ابن عون يقول : لا يؤخذ هذا العلم إلا ممن شهد له بالطلب[٢] . ويسمع شعبة بن الحجاج عبد الله ابن دينار يحدث فى الولاء وهبته عن عبد الله بن عمر ، فيستحلفه : هل سمعه من ابن عمر؟ فيحلف له[٣] . ويحدث الحكم عن سعيد بن المسيب فى دية اليهودى والنصرانى والمجوسى ، فيقول له شعبة : أنت سمعته من سعيد بن المسيب ؟ فيقول : لو شئت سمعت من ثابت الحداد ، قال شعبة : فأتيت ثابتاً الحداد فحدثنى عن سعيد بن المسيب عن عمر مثله[٤] . فلا يمكننا أن نحكم على شعبة أنه لم يكن يقبل رواية أحد إلا بعد تحليفه ، أو الاستيثاق برواية آخر معه . بل كل هذا كان من باب التثبت والاستيثاق والتأكد مما يسمعون ، حرصا منهم على حفظ الحديث النبوى الشريف .

* * *

(١) الجرح والتعديل ص ٢٧ جـ ١

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ جـ ١

(٣) تقدمة الجرح والتعديل ص ١٧٠

(٤) المرجع السابق ص ١٧٠ ومن هذا الباب ما كان يتأكد منه رجال الحديث فقد قال الليث بن سعد : قدم علينا رجل من أهل المدينة يريد الاسكندرية مرابطا ، فنزل على جعفر بن ربيعة ، قال : فعرضوا له بالحملان ، وعرضوا له بالمعونة فلم يقبل ، واجتمع هو وأصحابنا يزيد بن أبى حبيب وغيره فأقبل يحدثهم : حدثنى نافع عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فجمعوا تلك الأحاديث وكتبوا بها إلى ابن نافع ، وقالوا له : إن رجلا قدم علينا وخرج إلى الاسكندرية مرابطا وحدثنا ، فأحببنا ألا يكون بيننا وبينك فيها أحد ، فكتب إليهم ، والله ما حدث أبى من هذا بحرف قط ، فانظروا عمن تأخذون واحذروا قصاصنا ومن يأتيكم .

انظر مقدمة التمهيد ص ١٤ : ب

كيف رُوِى الحديث فى ذلك العصر .. باللفظ أم بالمعنى ..؟

رأينا كيف كان الصحابة والتابعون وأتباعهم يتثبتون فى قبول الأخبار ، وعرفنا ورعهم وخشيتهم عندما يروون حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أحدهم لا يروى الحديث إلا بعد الاستيثاق من ضبط حروفه وفهم معناه ، وكان الواحد منهم إذا سئل يود لو أن أخاه كفاه مؤونة السؤال ، حتى إن بعضهم كان يأبى أن يروى شيئاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافة الزيادة والنقصان ، ومن هذا ما يرويه العلاء بن سعد بن مسعود ، قال : « قيل لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك لا تحدث كما يحدث فلان وفلان ؟ فقال : ما بى ألا أكون سمعت مثل ما سمعوا أو حضرت مثل ما حضروا ، ولكن لم يدرس الأمر بعد والناس متماسكون ، فأنا أجد من يكفينى ، وأكره التزيد والنقصان فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم »[1] .

وإلى جانب ما رويناه من أخبار حول تثبت الصحابة والتابعين فى رواية الحديث ، ومنهاجهم فى الإقلال من الرواية مخافة الوقوع فى الخطأ — لا بد لنا من أن نتتبع بعض أخبارهم لنرى كيف كانوا يروون الحديث النبوى ؟ وهل كانوا يحافظون على لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو كانوا يروون ما يسمعون بألفاظ من عندهم دون أن يغيروا معنى ما سمعوا ؟

إذا استعرضنا تلك الأخبار رأينا كثيراً من الصحابة حرصوا على نقل الحديث بألفاظه ، وبعضهم ترخص عند الضرورة فى روايته بالمعنى ، وكما روى

---

(١) الكفاية ص ١٧٢

بعض الصحابة الحديث باللفظ وبعضهم بالمعنى نرى التابعين أيضا قد نهجوا نهج الصحابة رضوان الله عليهم ، ولـكن مما لا شك فيه أن جميع الصحابة حرصوا على أداء الحديث كما سمعوه من الرسول عليه الصلاة والسلام ، حتى إن بعضهم ما كان يرضى أن يبدل حرفا بحرف ، أو كلمة مكان كلمة ، أو يقدم كلمة على أخرى وردت فى الحديث قبلها ،وقد روى عن عمر رضى الله عنه ، أنه كان يقول : «من سمع حديثا فحدث به كما سمع فقد سلم[1] » وروى نحوه عن عبد الله بن عمر وزيد بن أرقم .

وقد اشتهر من بين الصحابة الذين كانوا يتشددون فى الحرص على لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم — عبد الله بن عمر . روى محمد بن سوقة قال : (سمعت أبا جعفر يقول : كان عبد الله بن عمر إذا سمع من نبى الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، أو شهد معه مشهدا ، لم يقصر دونه أو يعدوه ، قال : فبينما هو جالس وعبيد ابن عمير يقص على أهل مكة إذ قال عبيد بن عمير : مثل المنافق كمثل الشاة بين الغنمين ، إن أقبلت إلى هذه الغنم نطحتها ، وإن أقبلت إلى هذه نطحتها ، فقال له عبد الله بن عمر : ليس هكذا ، فغضب عبيد بن عمير ، وفى المجلس عبد الله ابن صفوان ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، كيف قال رحمك الله ؟ فقال : قال : مَثَلُ المنافقِ مثلُ الشاةِ بين الرَّبِيضَيْنِ ، إن أقبلت إلى ذا الربيض نطحتها ، وإن أقبلت إلى ذا الربيض نطحتها . فقال له : رحمك الله هما واحد . قال : كذا سمعت[2]) .

وروى ابن عمر حديث بنى الاسلام على خمس ، فأعاده رجل فقال له ابن

---

(١) المحدث الفاصل ص ١٢٧ : ب والـكفاية ص ١٧٢

(٢) مسند الإمام أحمد ص ٢٩٧ حديث ٥٥٤٦ جـ ٧ وانظر حديث ٥٣٥٩ ونحوه فى ص ٢٠ حديث ٥٦٢٠ جـ ٨ .

عمر : « لا ، اجعل صيام رمضان آخرهن كما سمعت من فِيْ رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] » ولهذا نرى فى بعض الأحاديث ، قول الراوى — كذا وكذا — لا أدرى بأيهما بدأ . أو أيهما قال قبل ، ونحو ذلك . وهذا تنبيه من الراوى إلى أنه أدرك الحديث وفهمه ، ولكنه لم يتأكد من ترتيب اسمين فيه أو كلمتين فيبين موضع شكه وأن الشك منه ليس فى أصل الحديث ، ومن هذا ما رواه خالد بن زيد الجهنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قريش والأنصار ، وأسلم وغفار — أو غفار وأسلم[٢] — . .

وتشدد بعض الرواة فى المحافظة على نص الحديث بألفاظه ، فمنع زيادة حرف واحد ، أو خذفه وإن كان لا يغير المعنى ، ومن هذا ما رواه سفيان قال : حدثنا الزهرى أنه سمع أنس بن مالك يقول : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدباء والمزفت أن ينتبذ فيه ، فقيل لسفيان أن ينبذ فيه ؟ فقال : لا ، هكذا قاله لنا الزهرى « ينتبذ فيه »[٣] .

وكان بعض الرواة شديدى الحرص على اللفظ الذى سمعوه ، فلا يخففون حرفا ثقيلا ، ولا يثقلون حرفا خفيفاً ، ولا يبدلون حركات الحروف التى يسمعونها ، بل يروونها كما سمعوها ، وإن كان ذلك التغيير لا يبدل معناها ، نحو (نما — نمى) فى حديثه صلى الله عليه وسلم « ليسَ الكاذِبُ مَنْ أصلحَ بينَ الناسِ فقال خيراً أو نمى خيراً » . قال حماد : سمعت هذا الحديث من رجلين ، فقال أحدهم نما خيراً (خفيفة) وقال الآخر نمى خيراً (مثقلة)[٤] .

---

(١) الكفاية ص ١٧٦

(٢) المرجع السابق ص ١٧٧

(٣) الكفاية ص ١٧٨

(٤) المصدر السابق ص ١٨٠ — ١٨١

وبلغ من حرص بعض المحدثين على لفظ الحديث أنهم لم يكونوا يحدثون طلابهم إلا إذا كتبوا عنهم ، إذ كانوا يكرهون أن يحفظوا عنهم ، خوفا من الوهم عليهم ، من هذا ما يرويه الخطيب البغدادى بسنده عن ابن عيينة قال : « قال محمد بن عمرو : لا والله لا أحدثكم حتى تكتبوه ، إنى أخاف أن تكذبوا على — وفى رواية — أخاف أن تغلطوا على »[١] .

ومنه ماروواه الرامهرمزى بسنده عن طلحة بن عبد الملك ، قال : « أتيت القاسم وسألته عن أشياء ، فقلت : أكتبها ؟ قال : نعم ، فقال لابنه : انظر فى كتابه ، لا يزيد على شيئاً ، قلت : يا أبا محمد إنى لو أردت أن أكذب لم آتك ، قال : إنى لم أرد ، إنما أردت إن اسقطت شيئاً يعدله لك[٢] » .

وكان الأعمش يقول : « كان هذا العلم عند أقوام ، كان أحدهم لأن يخرّ من السماء أحب إليه من أن يزيد فيه واوا ، أو ألفاً ، أو دالا . . .[٣] »

وقد أدرك ابن عون ثلاثة ممن يشددون فى رواية الحديث على حروفه ، وهم القاسم بن محمد بالحجاز ، ومحمد بن سيرين بالبصرة ، ورجاء بن حيوه بالشام[٤] ، وكان إبراهيم بن ميسرة وطاوس يحدثان الحديث على حروفه[٥] ، وكان طاوس يعد الحديث حرفاً حرفاً[٦] . ويروى عن ابن عيينة قوله « محدثو الحجاز ابن شهاب ويحيى بن سعيد وابن جريج يحيثون بالحديث على

---

(١) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠١ : آ

(٢) المحدث الفاصل ص ١٢٨ : آ

(٣) الكفاية ص ١٧٨

(٤) انظر المحدث الفاصل ص ٢٦ ١ : ب والكفاية ص ٢٠٥ والجامع لأخلاق الراوى وآدب السامع ص ١٠٠ : ب وجامع بيان العلم وفضله ص ٨٠ ج ١

(٥) انظر الكفاية ص ٢٠٥

(٦) المحدث الفاصل ص ١٢٧ : ب

وجهه[١] » ، وكان مالك بن أنس يحرص على أداء حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على حروفه[٢] .

وإلى جانب هذه الأخبار نرى أخبارا أخرى تدل على أن بعض الصحابة والتابعين رووا بعض الأحاديث بمعانيها ، أو أنهم أجازوا إبدال كلمة بأخرى عند الضرورة ، وكان أحدهم إذا اضطر إلى هذا أشار إلى أن ما يرويه ليس لفظه صلى الله عليه وسلم . لذلك نرى بعض الصحابة يتورعون كثيراً عند ذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية الخطأ .

وقد روينا أن عبد الله بن مسعود كان إذا قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هكذا أو نحوا من هذا ، أو قريباً من هذا ، وكان يرتعد[٣] . »

وكان أبو الدرداء إذا فرغ من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هذا أو نحو هذا أو شكله ، وقد يقول : « اللهم إلا هكذا ، فكشكله »[٤] .

وقال محمد بن سيرين : « كان أنس بن مالك قليل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : وكان إذا حدث عنه قال : أو كما قال[٥] » .

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل ص ٤٣

(٢) انظر الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٦ : ب وجامع بيان العلم وفضله ص ٨١ ج ١ والكفاية ص ١٨٨

(٣) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٧ : آ وجامع بيان العلم وفضله ص ٧٩ ج ١ ، وانظر سنن ابن ماجه ص ٨ ج ١

(٤ و ٥) الكفاية ص ٢٠٥ وجامع بيان العلم وفضله ص ٧٩ ج ١ والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ٢٠٧ . وذكر ذلك زهير بن حرب عن أبي الدرداء فى كتاب العلم ص ١٩١ : ب .

وعن عروة بن الزبير قال : « قالت لى عائشة رضى الله عنها : بلغنى أنك تكتب عنى الحديث ثم تعود فتكتبه ، فقلت لها : أسمعه منك على شيء ، ثم أعود فأسمعه على غيره ، فقالت : هل تسمع فى المعنى خلافا ؟ قلت : لا ، قالت : لا بأس بذلك [١] » . وعن أيوب عن محمد بن سيرين قال : ربما سمعت الحديث عن عشرة كلهم يختلف فى اللفظ والمعنى واحد [٢] .

قال مكحول : دخلت أنا وأبو الأزهر على واثلة بن الأسقع ، فقلنا له : يا أبا الأسقع ، حدثنا بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس فيه وهم ولا تزيد ولا نسيان ، قال : هل قرأ أحدٌ منكم من القرآن شيئا ؟ قال : فقلنا نعم ، وما نحن له بحافظين جدا ، إنا لنزيد الواو والألف وننقص . قال : فهذا القرآن مكتوب بين أظهركم لا تألون حفظا ، وأنتم تزعمون أنكم تزيدون وتنقصون فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عسى ألا نكون سمعناها منه إلا مرة واحدة ، حسبكم إذا حدثناكم بالحديث على المعنى [٣] .

وروى قتادة عن زرارة بن أبى أوفى قال : لقيت عدة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فاختلفوا على فى اللفظ واجتمعوا فى المعنى [٤] .

وقال جرير بن حازم : « سمعت الحسن يحدث بالحديث : الأصل واحد والكلام مختلف [٥] » ، وقال عمران القصير : « قلت له (للحسن البصرى) :

---

(١) الكفاية ص ٢٠٥

(٢) المحدث الفاصل ص ١٢٦ : ب وجامع بيان العلم وفضله ص ٧٩ ج ١ والكفاية ص ٢٠٥

(٣) الجامع لأخلاق الراوى ص ١٠٦ وتدريب الراوى ص ٣١٢ وموجزا فى كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩١ : ب

(٤) المحدث الفاصل ص ١٢٥

(٥) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٦ : آ

إنا نسمع الحديث فلا نجيء به على ما سمعناه ، قال : لو كنا لا نحدثكم إلا كما سمعنا ما حدثنا كم بحديثين ، ولكن إذا جاء حلاله وحرامه فلا بأس[١] » .

ورويت إجازة التحديث بالمعنى عن عبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وأنس ابن مالك ، وعائشة أم المؤمنين ، وعمرو بن دينار ، وعامر الشعبي وإبراهيم النخعي ، وابن أبي نجيح ، وعمرو بن مرة ، وجعفر بن محمد بن علي ، وسفيان بن عيينة ، ويحيى بن سعيد القطان[٢] .

وقد أدرك ابن عون ثلاثة ممن يرخصون في رواية الحديث على المعنى هم : الحسن البصري ، وإبراهيم النخعي ، وعامر الشعبي[٣] .

ونرى هؤلاء الذين أجازوا رواية الحديث على المعنى عند الضرورة ، كانوا يبينون للسامعين أنهم رووا بعض الحديث على المعنى بقولهم بعد التحديث ، أو كما قال ، ونحو هذا ، ومنهم من كان لا يبيح لمن يسمع أن يكتب عنه الحديث حتى لا يظن أن ما رواه لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان عمرو ابن دينار يحدث على المعنى ويقول : « أحرج على من يكتب عني[٤] » .

ولابد من أن نقرر أن من أباح رواية الحديث على المعنى أباحها بشروط ، ولم يطلق هذا لأي إنسان ، وأجازوا ذلك للضرورة ، كأن يند اللفظ عن الذاكرة ، أو يغيب لفظ الحديث عن المحدث عند الحاجة إلى روايته فيرويه بالمعنى ، والضرورة تقدر بقدرها . قال الإمام الشافعي في صفات الراوي : « أن يكون من حدث به ثقة في دينه ، معروفاً بالصدق في حديثه ، عاقلا لما يحدث

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع ص ١٠٦ : آ

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٠٦

(٣) انظر المحدث الفاصل ص ١٢٦ : ب وجامع بيان العلم : ص ٨٠ ج ٢ والكفاية ص ٢٠٥

(٤) تذكرة الحفاظ : ص ١٠٧ ج ١

به، عالماً بما يحيل معانى الحديث من اللفظ ، وأن يكون ممن يؤدى الحديث بحروفه كما سمع لا يحدث به على المعنى ، لأنه إذا حدث به على المعنى وهو غير عالم بما يحيل معناه — : لم يدر لعله يحيل الحلال إلى الحرام وإذا أداه بحروفه فلم يبق وجه يُخاف فيه إحالَتُه الحديثَ[1] . . » .

قال الرامهرمزى : « وقد دل قول الشافعى فى صفة المحدث مع رعايته اتباع اللفظ ، على أنه يسوغ للمحدث أن يأتى بالمعنى دون اللفظ ، إذا كان عالما بلغات العرب ووجوه خطابها ، بصيراً بالمعانى والفقه ، عالماً بما يحيل المعنى وما لا يحيله ، فإنه إذا كان بهذه الصفة جاز له نقل اللفظ ، فإنه يحترز بالفهم عن تغيير المعانى وإزالة أحكامها ، ومن لم يكن بهذه الصفة كان أداء اللفظ له لازماً ، والعدول عن هيئة ما يسمعه عليه محظوراً ، وإلى هذا رأيت الفقهاء من أهل العلم يذهبون . ومن حجتهم فى جواز ذلك : أن الله عز وجل قد قص من أنباء ما قد سبق قصصاً كرر ذكر بعضها فى مواضع بألفاظ مختلفة ، والمعنى واحد ، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربى ، وهو مخالف لها فى التقديم والتأخير والحذف والإلغاء والزيادة والنقصان وغير ذلك[2] » .

ولم يكن الصحابة والتابعون بدعا فى رواية بعض الأحاديث بمعناها ، بل وجدوا دليل الجواز فى منهج القرآن الكريم — كما ذكر الرامهرمزى — وفى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يرسل سفراءه ورسله فينقلون رسائله

---

(١) الرسالة ص ٣٧٠ — ٣٧١ الفقرة ١٠٠١ وانظر فيما يتعلق بالرواية على المعنى الفقرات : ٧٤٤ ، ٧٥٧ ، ١٠١٣ — ١٠١٥ و ١٠٣٦ — ١٠٤٢ من الرسالة . ونقل الرامهرمزى قول الشافعى فى المحدث الفاصل ص ٧٩ : ب و ص ١٢٨ : آ ، وانظر أيضا معرفة السنن والآثار للبيهقى ص ٩ ج ١

(٢) المحدث الفاصل ص ١٢٤ : ب

ويترجمونها إلى غير العربية، فإباحة ترجمة الحديث إلى لغة ثانية دليل على إباحة نقله بنفس اللغة على معناه، بلفظ عربي هو أقرب إلى لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم من ألفاظ اللغة الأجنبية[١]، بل هذا أولى بأن يكون مباحا.

وللذين كرهوا الرواية على المعنى أدلة منها حديث « نضر الله امرءا سمع منا حديثا فأداه كما سمعه »، وما رواه البراء بن عازب « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا براء كيف تقول إذا أخذت مضجعك؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم، قال: « إذا أويت إلى فراشك طاهرا فتوسد يمينك، ثم قل اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت». فقلت كما علمني غير أني قلت ورسولك فقال بيده في صدري و (بنبيك) فمن قالها من ليلته ثم مات، مات على الفطرة[٢].

وقد أطال بعض العلماء القول في أدلة كل من المجيزين للرواية على المعنى والمانعين لها[٣]. وأجمع العلماء كلهم على أنه لا يجوز للجاهل بمعنى ما ينقل أن يروى الحديث على المعنى. ومن أجاز هذه الرواية إنما أجازها للعالم بشروط، قال الماوردي: « إن نسي اللفظ جاز، لأنه تحمل اللفظ والمعنى، وعجز عن أداء

---

(١) انظر الكفاية ص ٢٠٣

(٢) الكفاية ص ١٧٥ والمحدث الفاصل ص ١٢٥ : آ

(٣) تكلم الخطيب البغدادي في الرواية على المعنى واللفظ وذكر الأدلة في ذلك راجع الكفاية ص ١٩٨ ـ ٢٠٣ وتكلم العراقي حول الرواية بالمعنى انظر فتح المغيث ص ٤٨ ج ٢ وما بعدها، وكذلك السيوطي في تدريب الراوي انظر ص ٣١١ وما بعدها. وكذلك الحافظ ابن كثير انظر الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ص ١٥٧ وما بعدها، وفصل الشيخ طاهر الجزائري أقوال العلماء وأدلتهم في (توجيه النظر) ص ٢٩٨ ـ ٣١٤ وهو خير من استوفى هذا البحث من المتأخرين.

أحدهما ، فيلزمه أداء الآخر ، لاسيما أنّ تركه قد يكون كتما للأحكام ، فان لم ينسه لم يجز أن يورده بغيره ، لأن فى كلامه صلى الله عليه وسلم من الفصاحة ماليس فى غيره [١] » . وقال السيوطى : « ولا شك فى اشتراط ألا يكون مما تعبد بلفظه ... وعندى أنه يشترط ألا يكون من جوامع الكلم [٢] » .

بعد هذا يمكننا أن نحكم أن رواية الحديث بالمعنى كانت للضرورة ، وكانت بقدر وخاصة بعد أن عرفنا ورع الصحابة والتابعين ، ودقتهم فى رواية الأخبار ، وتحفظهم وتثبتهم مما يروون أو يسمعون ، وهذا يرجح عندى أن الرواية بالمعنى إن وقعت تاريخيا من بعض الصحابة ، فإنما كانت بألفاظ قريبة جدا من ألفاظه صلى الله عليه وسلم ، لأنهم رأوا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وسمعوا منه وتخرجوا بخلقاته ، واستضاءت قلوبهم بتوجيهه وعنايته ، وكانوا على جانب عظيم من البيان والفصاحة ، وهم أعلم الأمة بلغة العرب ، لم يتسرب إلى كلامهم اللحن ، ولم يغير سليقتهم ولسانهم امتزاج الأمم والشعوب .

ويقوى عندى أن معظم ما رواه الصحابة والتابعون كان بلفظ الرسول صلى الله عليه وسلم — أن بعضهم كان يكتب الحديث بين يدى النبى الكريم ، وكانوا يعقدون الحلقات يتذاكرون فيها ما يسمعونه منه عليه الصلاة والسلام ، ويصحح بعضهم أخطاء بعض ، وإذا شكوا فى أمر أو أشكل عليهم شىء رجعوا إلى النبى الأمين صلى الله عليه وسلم ، وكان أكثر الرواة من التابعين يكتبون ما يسمعون من الصحابة ويحفظونه ، فمنهم من يذاكر الحديث حتى إذا ما وعاه صدره محاه ، ومنهم من يحفظه ويحتفظ بصحفه وألواحه ، ومنهم من حرص

---

(١) تدريب الراوى ص ٣١٣

(٢) المرجع السابق ص ٣١٤

على كتابة الحديث وجمعه فى كراريس أو فى مصنف كالصحف[١] .

وأما من كان لا يكتب من التابعين وأتباعهم فقد حرص على حفظ الحديث فى صدره ، وكانوا يتذاكرون الأحاديث بين آونة وأخرى ، ويرحلون من بلد إلى آخر ليسمعوا من الصحابة رضى الله عنهم ، أو ليتأكدوا من صحة ماسمعوه عن رسو الله صلى الله عليه وسلم ، فيفهموا معناه ويضبطوا حروفه وألفاظه ،

ويزيدنا ثقة بأن جل ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بلفظه عليه الصلاة والسلام ، تلك الحوافظ التى وهبها الله عز وجل لحملة الشريعة الإسلامية ، ورواة الحديث الشريف من الصحابة والتابعين وأتباعهم ، فيروى لنا التاريخ ما كان يحفظه أبو هريرة وغيره ، وإن المرء ليعجب عندما يطلع على أخبار صحيحة ، تذكر تلك الحوافظ العظيمة التى حملت إلينا السنة كذاكرة عبد الله بن عباس الذى اشتهر بسرعة حفظه ، حتى إنه كان يحفظ الحديث من مرة واحدة ، ويروى أنه سمع قصيدة لابن أبى ربيعة عدتها ثمانون بيتا فحفظها من المرة الأولى ، وفى الصحابة أمثاله كزيد بن ثابت الذى حفظ معظم القرآن قبل بلوغه ، وتعلم لغة اليهود فى سبعة عشر يوماً ، وفيهم عائشة أم المؤمنين التى كانت آية من آيات الذكاء والحفظ وغير هؤلاء .

وفى التابعين نافع مولى عبد الله بن عمر الذى لم يخطىء فيما حفظ ، وأجمع النقاد على دقة حفظه ، وفيهم ابن شهاب الزهرى حافظ زمانه ، وعامر الشعبى ديوان عصره ، وقتادة بن دعامة السدوسى مضرب المثل فى سرعة الحفظ والضبط والاتقان .

فإذا طالعنا ما اختلف فيه الرواة من حيث اللفظ ، مما تعددت طرقه وجدنا

---

(١) تعرضت لهذا فى الباب الرابع من هذا الكتاب ، وفصلت القول فيه .

معظمه مما كان أخباراً عن عمل من أعماله صلى الله عليه وسلم ، أو تبليغاً لحكم واقعة شاهدوها بأعينهم ، فنراهم يقولون : « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا » ، و « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كذا » ، والمعنى فى كل هذا واحد ، وهذا طبيعى لا يدخل الريب فى مروياتهم ، لاختلافهم فى صيغ الأداء ، لأن كل راو عبر عما شاهده بلفظه ، ومن النادر أن نرى اختلافاً فيما نقلوه إلينا من جوامع الكلم ، أو مما يتعبد بلفظه ، كصيغ الأذان والإقامة والدعاء والتشهد وغير ذلك .

وليس جميع ما نقل إلينا مما اختلف لفظه بسبب الرواية بالمعنى ، فجله يعود إلى تعدد مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم وكثرتها ، فقد يتناول موضوعاً واحداً فى مناسبات مختلفة ، ويجيب السائلين بما يتناسب مع مداركهم ، وقد يستفتيه أكثر من واحد فى واقعة واحدة ، فيفتى كل واحد بما يكفيه ويروى غليله ، بألفاظ مختلفة ، وعبارات متفاوتة ، تؤدى الغاية المقصودة ، وما روى بالمعنى مع هذا لا يكاد يخفى على أهل هذا العلم ، لكثرة دراستهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وللأمانة العلمية التى كان عليها الرواة ، فكانوا مثلا رائعاً فى الضبط والدقة والإتقان ، يتبعون بعض ما يروونه بعبارة تفيد احتياطهم فيما نقلوه ، وينبهون فى أثناء سياق الحديث على موضع السهو أو الظن ، وكانوا يحرصون دائماً على نقل اللفظ النبوى كما صدر عنه عليه الصلاة والسلام .

بعد هذا لا نرى داعياً للتهويل الذى يثيره بعض الكتاب وبعض المغرضين حول رواية بعض الأحاديث بالمعنى ، ولا وجه لإثارة خلاف أصبح طى التاريخ ، وكان معظم ما ذهب إليه العلماء من إباحة رواية الحديث بالمعنى وعدم روايته خلافا عقلياً نظرياً ، وإن وقع تاريخنا فإنما وقع فى الصدر الأول وبقدر

لاضرر منه ، لذلك نرى أنه من العبث إثارة مثل هذا الموضوع — الذى انصرم أوانه — وتشكيك الأمة فى حديث رسولها الأمين ، وليس هناك أى مسوغ لإدخال الريب فى النفوس ، بعد أن أجمعت الأمة على قبول الكتب الصحاح ، وعلى أنها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى نقل إلينا بأسلم الطرق العلمية ، على أيدى خيار علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم .

وقد تناول (أبو رية) فى كتابه « أضواء على السنة المحمدية » هذا البحث ، إلا أنه أحاط الموضوع بهالة ، توهم من لا خبرة له بأن معظم الحديث النبوى قد روى بألفاظ الرواة[1] ، وجسم خطر الرواية بالمعنى ، بما لا يتفق والواقع التاريخى ، وتحدث عن بعض الخلاف العقلى النظرى على أنه مما وقع بالفعل ، ورتب على جواز الرواية بالمعنى نتائج ، إن صح ترتبها على رواية غير الحديث بالمعنى . لا يمكن أن تنتج عن رواية الحديث

---

(١) افتتح ابو رية موضوعه هذا فقال : « يحسب الذين لا خبرة لهم بالعلم ، ولا علم عندهم بالخبرة أن أحاديث الرسول التى يقرؤنها فى الكتب ، أو يسمعونها ممن يتعبدون بها ، قد جاءت صحيحة المبنى محكمة التأليف ، وأن ألفاظها قد وصلت إلى الرواه مصونة كما نطق النبى بها ، بلا تحريف ولا تبديل ، وكذلك يحسبون أن الصحابة ومن جاء من بعدهم ، ممن حملوا عنهم إلى زمن التدوين ، قد نقلوا هذه الأحاديث بنصها كما سمعوها ، وأدوها على وجهها كما لفظوها ، فلم يطرأ تغير ولا اعتراها تبديل ، ومما وقر فى أذهان الناس أن هؤلاء الرواة قد كانوا جميعاً صفا خاصا بين بنى آدم فى جودة الحفظ وكمال الضبط وسلامة الذاكرة ... ولقد كان ولا جرم لهذا الفهم أثر بالغ فى أفكار شيوخ الدين — إلا من عصم ربك — فاعتقدوا أن هذه الأحاديث فى منزلة آيات الكتاب العزيز ، من وجوب التسليم بها ، وفرض الإذعان لأحكامها ، بحيث يأثم أو يرتد أو يفسق من خالفها ، ويستتاب من أنكرها أو شك فيها . » انظر أضواء على السنة المحمدية ص ٤ ه . ولا مجال الرد على فريتة هذه هنا ، وستظهر لنا عناية النقاد والرواة وضبطهم فى الفصول التالية من هذا الكتاب .

فضلا عن أنها لم تترتب من جراء رواية بعض الأحاديث بمعناها ، لما عرفنا من دقة النقاد والرواة ، وكثرة طرق الرواية ، ومقابلتها ومناقشتها ، وكل ما فى الأمر أن بعض الأحاديث رويت بمعناها ، ولم ينتج عن ذلك خطر على الدين ولا غاب ذلك عن المسلمين .

ونحن لا نشك أن الرواية بالمعنى قد توقع فى الخطأ ، ولكن هذا الخطأ — إذا وقع — لم يخف على علماء الأمة ، فلا وجه لذلك التهويل والإيهام ، لأن النقاد والعلماء اعتنوا عناية عظيمة بحفظ الحديث وروايته ، وأشاروا إلى كل كبيرة وصغيرة ورووا أكثر الأحاديث من طرق عدة تنفى الشك وتطرح الخبث ، فما الداعى — بعد هذا — لأن يثير (أبو رية) شبهة حول الحديث وروايته ؟

على أنه لم يكتف بذكر اختلاف السابقين فى الرواية وذكر أقوالهم ، بل حاول أن يثبت أن جميع ما روى مختلفاً لفظه إنما كان نتيجة لرواية الحديث بالمعنى ، وساق شواهد على هذا ، فذكر اختلاف صيغ التشهد ، واستطرد وخرج عن الموضوع ، ثم ذكر « حديث الإسلام والإيمان » وحديث « زوجتكها بما معك » وغير ذلك ، وما من شىء استشهد به إلا وللعلماء قول فيه .

وقد رد على (أبو رية) العلامة المعاصر (عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى) ردا مفصلا [1] يكفى أن استشهد بفقرة واحدة منه .

---

(١) فى كتابه الأنوار الكاشفة الذى وضعه ردا على كتاب أبى رية أضواء على السنة . انظر ص ٨٢ — ٨٨ وانظر ظلمات أبى رية لمحمد عبد الرزاق حمزة ص ٦٨ — ٩٩ .

قال العلامة اليماني : (قال — أبو رية — « ص ٦٠ » : « صيغ التشهد » وذكر اختلافها[١] . أقول : يتوهم أبو رية — أو يوهم — أن النبي صلى الله عليه وسلم، إنما علمهم تشهدا واحدا ، ولكنهم أو بعضهم لم يحفظوه ، فأتوا بألفاظ من عندهم مع نسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا باطل قطعا ، فإن التشهد يكرر كل يوم بضع عشرة مرة على الأقل فى الفريضة والنافلة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحفظ أحدهم حتى يحفظ ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرىء الرجلين السورة الواحدة هذا بحرف وهذا بآخر . فكذلك علمهم مقدمة التشهد بكل ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما ذكر عمر التشهد على المنبر ، وسكوت الحاضرين فإنما وجهه المعقول هو تسليمهم أن التشهد الذى ذكره صحيح مجزىء . وقد كان عمر يقرأ فى الصلاة وغيرها القرآن ولا يرد عليه أحد . مع أن كثيرا منهم تلقوا عن النبي بحرف غير الحرف الذى تلقى به عمر ، ومثل هذا كثير ، ومن الجائز أن يكونوا — أو بعضهم — لم يعرفوا اللفظ الذى ذكره عمر ، ولكنهم قد عرفوا أن النبي صلى الله عليه وسلم علم أصحابه بألفاظ مختلفة وعمر عندهم ثقة[٢]) .

---

(١) بعد أن ذكر أبو رية صيغ التشهد عن الصحابة (ص ٦٠ — ٦٢) قال : « هذه تشهدات ثمانية وردت عن الصحابة وقد اختلفت ألفاظها ، ولو أنها كانت من الأحاديث القولية التى رويت بالمعنى لقلنا عسى ! ولكنها من الأعمال المتواترة التى كان يؤديها كل صحابى مرات كثيرة كل يوم ، وهم يعدون بعشرات الآلاف ، ومما يلفت النظر أن كل صاحب تشهد يقول ، إن الرسول كان يعلمه التشهد كما يعلمهم القرآن ، وأن تشهد عمر قد ألقاه من فوق منبر رسول الله والصحابة جميعا يسمعون ، فلم ينكر عليه أحد منهم ما قال ، كما ذكر مالك فى الموطأ . » أهـ ، انظر أضواء على السنة ص ٦٣ إنه يريد أن يشكك حتى فيما تعبد به وفيما ثبت متواترا ، والرد على أبى رية وعلى دعواه فى طى عبارته ، فلو تجرد وانطلق إلى أفق أوسع من أفقه ما استغرب تعدد هذه الصيغ ولا فتح على المسلمين باب الشك والريبة ولا شكك فى الصحابة حفظة الشريعة وحراسها .

(٢) الأنوار الكاشفة ص ٨٣

وأرى أن نستكمل بحثنا هذا بما ذهب إليه أئمة اللغة العربية ، الذين أجازوا الاستشهاد بالحديث النبوى لإثبات قواعد النحو .

قال عبد القادر البغدادى صاحب خزانة الأدب : « وأما الاستدلال بحديث النبي صلى الله عليه وسلم فقد جوزه ابن مالك وتبعه الشارح المحقق (الرضى) فى ذلك ، وزاد عليه بالاحتجاج بكلام أهل البيت رضى الله عنهم ، وقد منعه ابن الضائع وأبو حيان وسندهما أمران :

أحدهما : أن الأحاديث لم تنقل كما سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما رويت بالمعنى .

وثانيهما : أن أئمة النحو المتقدمين من المصريين لم يحتجوا بشىء منها .

ورد الأول — على تقدير تسليمه — بأن النقل بالمعنى إنما كان فى الصدر الأول قبل تدوينه فى الكتب ، وقبل فساد اللغة ، وغايته تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به فلا فرق ، على أن اليقين غير مشروط بل الظن كاف .

ورد الثانى : بأنه لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال به .

والصواب جواز الاحتجاج بالحديث للنحوى فى ضبط ألفاظه ، ويلحق به ماروى عن الصحابة وأهل البيت ، كما صنع الشارح المحقق » .

ثم قال نقلا عن الدمامينى فى الرد على من لا يحتج بالحديث فى اللغة :

«وقد رد هذا المذهب الذى ذهبوا إليه البدر الدمامينى فى (شرح التسهيل) — ولله دره فإنه قد أجاد فى الرد — قال : قد أكثر المصنف من الاستدلال بالأحاديث النبوية ، وشنع أبو حيان عليه ، وقال : إن ما استند إليه من ذلك

لا يتم له ، لتطرق احتمال الرواية بالمعنى فلا يوثق بأن ذلك المحتج به لفظه صلى الله عليه وسلم ، حتى تقوم به الحجة . وقد أجريت ذلك لبعض مشايخنا فصوب رأى ابن مالك فيما فعله بناء على أن اليقين ليس بمطلوب فى هذا الباب ، وإنما المطلوب غلبة الظن الذى هو مناط الأحكام الشرعية ، وكذا ما يتوقف عليه من نقل مفردات الألفاظ وقوانين الإعراب ، فالظن فى ذلك كله كاف ، ولا يخفى أنه يغلب على الظن أن ذلك المنقول المحتج به لم يبدل ، لأن الأصل عدم التبديل ، ولا سيما أن التشديد فى الضبط والتحرى فى نقل الأحاديث شائع بين النقلة والمحدثين . ومن يقول منهم بجواز النقل بالمعنى ، فإنما هو عندى بمعنى التجويز العقلى الذى لا ينافى وقوع نقيضه فلذلك تراهم يتحرون فى الضبط ويتشددون مع قولهم بجواز النقل بالمعنى ، فيغلب الظن من هذا كله أنها لم تبدل ويكون احتمال التبديل فيها مرجوحا فيلغى ، ولا يقدح فى صحة الاستدلال بها .

ثم إن الخلاف فى جواز النقل بالمعنى إنما هو فيما لم يدون ولا كتب ، وأما ما دون وحصل فى بطون الكتب فلا يجوز تبديل ألفاظه من غير خلاف بينهم ، قال ابن الصلاح بعد أن ذكر اختلافهم فى نقل الحديث بالمعنى : « إن هذا الخلاف لا نراه جارياً ولا أجراه الناس — فيما نعلم — فيما تضمنته بطون الكتب ، فليس لأحد أن يغير لفظ شىء من كتاب مصنف ويثبت فيه لفظاً آخر » . اهـ

وتدوين الأحاديث والأخبار — بل تدوين[1] كثير من المرويات — وقع

---

(١) فى الأصل (بل وكثير) فحذفنا الواو لأنه لا يجتمع حرفا عطف معا وأضفنا كلمة (تدوين) تحريرا للعبارة .

فى الصدر الأول قبل فساد اللغة العربية حين كان كلام أولئك المبدلين — على تقدير تبديلهم — يسوغ الاحتجاج به ، وغايته يومئذ تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به ، فلا فرق بين الجميع فى صحة الاستدلال ، ثم دون ذلك المبدل — على تقدير التبديل — ومنع من تغييره ونقله بالمعنى ، كما قال ابن الصلاح فبقى حجة فى بابه ، ولا يضر توهم ذلك السابق فى شىء من استدلالهم المتأخر ، والله أعلم بالصواب[1] » .

---

(١) خزانة الأدب : ص ٤ ـ ٧ ج ١

الفصل الثاني

وفيه

النشاط العلمي في عصر الصحابة والتابعين

شعر الصحابة بالتبعة الملقاة على عاتقهم لحفظ الشريعة وتطبيقها ، فسارعوا إلى صيانة مصادرها الأولى خشية ضياع القرآن الكريم من صدور القراء (الحفاظ) ، إثر حروب الردة ، ومن ثم جمعوه في مصحف على عهد الصديق ، وخافوا عاقبة الاختلاف في القراءات في الأمصار المختلفة ، فنسخوه في مصاحف وزعت على الأقاليم الإسلامية في عهد عثمان رضي الله عنه وكانوا في أحكامهم يرجعون إلى الكتاب الكريم ثم إلى السنة ، يسألون عن حكم مأثور عن الرسول فيما يجد لهم من قضايا ، فإذا ما ثبت عندهم شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمسكوا به وطبقوه ، وقد ذكرت طريقة اجتهادهم فيما سبق .

وقد وجد الصحابة الضرورة تلح لحفظ السنة ، فحاول الصديق ثم الفاروق حفظها كتابة — وما منعهم من ذلك إلا حرصهم على القرآن والسنة كما سيتبين لنا هذا في بحث تدوين السنة — فما كان منهم إلا أن أكبوا على دراستها والسؤال عنها ، والبحث عن الحديث عند حفاظه ، ويكفينا مثالا لهذا ما كان يفعله ابن عباس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى عكرمه من ابن عباس أنه قال : « لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لرجل من الأنصار : هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ، فإنهم اليوم كثير ، قال : واعجبا لك يا ابن عباس ! أترى الناس يفتقرون إليك ، وفي الناس من أصحاب رسول الله مَنْ فيهم ؟ قال : فترك ذاك ، وأقبلت أنا أسأل أصحاب رسول الله عن الحديث ، فإنه كان يبلغني الحديث عن

الرجل ، فآتى بابه وهو قائل[١] ، فأتوسد ردائى على بابه ، تسفى الريح علىّ من التراب ، فيخرج فيقول : يابن عم رسول الله ما جاء بك ؟ ألا أرسلت إلى فآتيك ؟ فأقول : أنا أحق أن آتيك ، فأسأله عن الحديث[٢] . »

وكانت رغبة الصحابة فى سماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عظيمة ، وهل أحب إلى المرء من أن يسمع حكم مربيه وأحكامه وتشريعاته ؟ وهل من شىء أعز على المسلم من أن يحيى آثار منقذه من الضلال ورائده إلى الخير ؟ لقد كان الصحابة مندفعين بإخلاص إلى سماع حوادث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته وحديثه ، فهذا أبو بكر الصديق يقف عند عازب والد البراء فيشترى منه رحلا وهو للناقة كالسرج للفرس ، ثم يقول له : « مر البراء فليحمله إلى منزلى ، فيقول : لا ، حتى تحدثنا كيف صنعت حين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت معه . فقص عليه خبر الهجرة[٣] » .

وهذا على أمير المؤمنين يلتقى بكعب الأحبار فيقول له كعب : يا على أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى المنجيات ؟ قال : لا . ولكن سمعته يقول فى الموبقات ، فقال كعب لعلى : حدثنى بالموبقات حتى أحدثك بالمنجيات فقال على : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الموبقاتُ : تركُ السنة ، ونكث البيعة ، وفراق الجماعة . فقال كعب لعلى : المنجيات : كفُّ لسانك ، وجلوسٌ فى بيتك ، وبكاؤك على خطيئتك »[٤] .

---

(١) أى وهو فى نوم الظهيرة من القيلولة والقائلة .

(٢) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ٢٤ : آ وانظر ص ٢٤ : ب منه وتذكرة الحفاظ ص ٣٨ ج ١

(٣) مسند الإمام أحمد ١٥٤ ـ ١٥٦ ج ١ وانظر فتح البارى ص ٤٣٥ ج ٧

(٤) المحدث الفاصل ص ١٤٩ : آ

وقد روى بعض الصحابة عن بعض كثيراً سواء فى حياته عليه الصلاة والسلام أو بعد وفاته ، من ذلك رواية الفاروق عمر عن الصديق رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث « لا نُورَثُ ما تركناه صدقة » وهو حديث صحيح أخرجه مسلم ، ومنها رواية عثمان رضى الله عنه عن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقاً إلا حرم على النار : لا إله إلا الله » أخرجه مسلم فى صحيحه ، ورواية أبى بكر عن بلال رضى الله عنهما قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يا بلال أصبحوا بالصبح ، فإنه خير لكم . » ورواية عبد الرحمن بن عوف عن الفاروق رضى الله عنهما قال : رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده . وما رواه بجالة بن عبدة . قال : كنت كاتباً لجرير بن معاوية على مَنَاذِرَ[1] ، فجاءنا كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه : انظر مجوس هجر من قبلك ، فخذ منهم الجزية ، فإن عبد الرحمن ابن عوف أخبرنى أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس اهل هجر ، وروت عائشة عن الصديق ، كما روى عنها ، وروى ابن عمر عن ابن عباس ، وابن عباس عن ابن عمر ، كما روت عائشة عنه ، وروى ابن عباس عنها وروى جابر بن عبد الله عن أبى سعيد الخدرى ، كما روى أبو سعيد عن جابر ، وأنس عن جابر ، وجابر عن أنس ، وروى ابن عباس عن جابر بن عبد الله كما روى جابر عنه ، وروى أبو سعيد الخدرى عن ابن عباس كما روى ابن عباس عنه[2] ، ومن يراجع كتب السنن وتراجم الرواة يجد كثيراً من روايات بعض الصحابة عن بعض ،

---

(١) مناذر هما بلدتان بنواحى خوزستان ، مناذر الكبرى ومناذر الصغرى ، وهما من كور الأهواز ، وقد فتحتا سنة (١٨) هـ . انظر معجم البلدان ص ١٦٠ جـ ٨

(٢) انظر اللطائف فى دقائق المعارف من علوم الحفاظ الأعارف مخطوطة الظاهرية ص ١ : آ — ٣ : ب

وهذا دليل واضح على النشاط العلمى الذى كان بينهم ، يتبادلون الأحاديث ويسمعون ويسمع منهم ويروون ويروى عنهم . كل هذا فى سبيل معرفة الحق وحفظ السنة المطهرة .

ولم يكتف الصحابة بدراسة الحديث فيما بينهم ، بل حثوا على طلبه وحفظه وحضوا التابعين على مجالسة أهل العلم والأخذ عنهم ، ولم يتركوا وسيلة لذلك إلا أفادوا منها . من هذا ما روى عن عمر رضى الله عنه قال : « تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا [١] » وقال أيضاً « تعلموا الفرائض والسنة كما تتعلمون القرآن [٢] » وكان أبو ذر مثالا رائعاً لنشر الحق وتبليغ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يروى عنه أنه قال : « لو وضعتم الصمصامة — السيف الصارم — على هذه ، وأشار إلى قفاه ، ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها من النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن تجيزوا علىّ لأنفذتها [٣] » . وما كان أبو ذر بدعا فى الصحابة ، إنما كان أحد الألوف الذين ساهموا فى حفظ السنة .

عن أبى قلابة قال : « قال ابن مسعود : عليكم بالعلم قبل أن يقبض ، وقبضه ذهاب أهله . . . [٤] » وكان ينهى عن البدع ويأمر باتباع السنة فيقول : « الاقتصاد فى السنة أفضل من الاجتهاد فى البدعة [٥] » . وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب : « تزاوروا وتذاكروا الحديث ، فإنكم إلا تفعلوا يدرس [٦] » .

---

(١) فتح البارى ص ١٧٥ ج ١

(٢) جامع بيان العلم وفضله ص ٣٤ ج ٢

(٣) فتح البارى ص ١٧٠ ج ١

(٤ و ٥) تذكرة الحفاظ ص ١٥ ج ١ ومجمع الزوائد ص ١٢٥ ج ١ وانظر حضه على مذاكرة الحديث فى معرفة علوم الحديث ١٤١ .

(٦) شرف أصحاب الحديث ص ٦٩ . وانظر أيضا معرفة علوم الحديث ص ٦٠ و ١٤١

ووقف عمرو بن العاص على حلقة من قريش فقال : « ما لكم قد طرحتم هذه الأغيلمة ؟ لاتفعلوا ، وأوسعوا لهم فى المجلس ، وأسمعوهم الحديث ، وأفهموهم إياه ، فإنهم صغار قوم أوشك أن يكونوا كبار قوم ، وقد كنتم صغار قوم فأنتم اليوم كبار قوم[١] » .

وكان ابن عباس يحض طلابه على مذاكرة الحديث ، فيقول : تذاكروا هذا الحديث لاينفلت منكم ، فإنه ليس بمنزلة القرآن ، القرآن مجموع محفوظ ، وإنكم إن لم تذاكروا هذا الحديث تفلت منكم ، ولا يقل أحدكم حدثت أمس لا أحدث اليوم ، بل حدث أمس ، وحدث اليوم ، وحدث غداً . . ، كما كان يقول : إذا سمعتم منا شيئاً فتذاكروه بينكم[٢] » .

وكان أبو سعيد الخدرى يحب طلاب العلم ويفسح لهم المجالس ، وكثيراً ما كان يقول : تحدثوا ، فإن الحديث يذكر بعضه بعضاً[٣] .

ومما يروى عن أبى أمامة الباهلى أنه قال لطلابه : « إن هذا المجلس من بلاغ الله إياكم ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ ما أرسل به ، وأنتم فبلغوا عنا أحسن ما تسمعون . وفى رواية كان يحدثهم حديثاً كثيراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا سكت قال : اعقلوا ، بلغوا عنا كما بلغنا كم[٤] » .

وهكذا كان الصحابة الكرام يتواصون بحفظ الحديث ومذاكرته ويحضون طلابهم على ذلك ، ويحثونهم على تبليغ ما يسمعون منهم .

---

(١) شرف أصحاب الحديث ص ٨٩ : ب

(٢) شرف أصحاب الحديث ص ٩٩ : آ وانظر نحوه فى الجامع لاخلاق الراوى وآدابه السامع نسخة الظاهرية ص٤٨ : ب

(٣) شرف أصحاب الحديث ص ١٠٠ : آ

(٤) شرف أصحاب الحديث ص ١٠٠ : آ

وقد سار التابعون وأتباعهم على نهج الصحابة ، فكانوا يوصون أولادهم وتلاميذهم بحفظ السنة وحضور مجالس العلم ، فقد أوصى عروة بنيه بهذا كما أوصى طلابه(١) ، وكان علقمة يشجع طلابه على مذاكرة الحديث ودراسته(٢) كما كان عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول : إحياء الحديث مذاكرته فتذاكروه(٣) . واشتهرت بين العلماء عبارة « تذاكروا الحديث فإن الحديث يهيج الحديث(٤) » .

وأكثر من هذا ، كان بعض الآباء يشجعون أبناءهم على حفظ الحديث ، ويقدمون إليهم جوائز كلما حفظوا شيئا منه ، من هذا ما رواه النضر بن الحرث قال : سمعت إبراهيم بن أدهم يقول : قال لي أبي : يا بني ، أطلب الحديث ، فكلما سمعتَ حديثا وحفظتَه فلك درهم . فطلبتُ الحديث على هذا(٥) .

ومهما يكن موقف المربين في هذا العصر من هذا التشجيع فإنه وسيلة مبدئية لحفظ الحديث ودراسته ، إن كانت في نظر الطفل هي الغاية فإنها لا تلبث أن تصبح ، وسيلة فإذا ما ألف حفظ الحديث ، وتعطشت نفسه إليه تجسمت الغاية الأصلية أمامه ، وعرف قيمتها ، وقدر نفع الحديث ، وعرف معناه ، وأصبح من عشاقه ، سواء أنقطعت تلك الجوائز أم لم تنقطع .

وإن التاريخ ليحفظ لنا أخباراً كثيرة تثبت إقبال طلاب العلم على طلب

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ص ١٣٤ ــ ١٣٥ قسم ٢ جـ ٢ وانظر المحدث الفاصل نسخة دمشق ص ١٥ : ب ، جـ ١

(٢و٣و٤) انظر شرف أصحاب الحديث ص ١٠ : ب ، وانظر كتاب العلم لزهير بن حرب فان فيه بعض هذا ص ١٨٩ : ب وكذلك في الجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع ص ٤٦ : ب والمحدث الفاصل ص ١٢٩ : ب ــ ١٣٠ : ب

(٥) شرف أصحاب الحديث ص ٩٠ ، وابراهيم بن أدهم عاصر الثوري ويغلب أن وفاته سنة (١٦١) كان ورعا مجاهدا ، انظر البداية والنهاية ص ١٣٥ جـ ١٠

الحديث إقبالا لا مثيل له ، بدافع ذاتى ، وميل نفسى ، حتى إن بعض طلاب العلم المتفانين فى حب الحديث كانوا يؤدون بعض الخدمات من أجل سماع حديث أو حديثين[١] .

وقد كانت المنافسة العلمية المحببة قائمة بين طلاب الحديث فى ذلك العصر، فالذكى من تمكن من حفظ أحاديث فى باب كذا وباب كذا ، والمجد من أسرع إلى صحابى وأخذ عنه قبل وفاته ، والمفلح من حظى بحب شيخه ، وتمكن من الانفراد به ، والكتابة عنه ، والقراءة عليه ثم العرض والتصحيح بين يديه . . .

لكل هذا رأينا أصحاب الحديث يَجِدُّون فى طلب العلم الشريف ، ويتبارون فى تحصيله[٢] ، وكثر طلاب العلم كثرة تثلج لها الصدور ، وتشرق بها النفوس حتى إن أحد الصحابة كان يحدث الناس ، فيكثرون عليه ، فيصعد فوق بيت ويحدثهم[٣] قال أنس بن سيرين : قدمت الكوفة قبل الجاجم ، فرأيت بها أربعة آلاف يطلبون

---

(١) روى سفيان بن عيينة قال : كان أبى صيرفيا بالكوفة فركبة الدين فحملنا إلى مكة فلما رجعنا إلى المسجد لصلاة الظهر ، وصرت إلى باب المسجد إذا شيخ على حمار فقال لى يا غلام امسك على هذا الحمار حتى أدخل المسجد فأركبه ، فقلت : ما أنا بفاعل أو تحدثنى ، قال : وما تصنع أنت بالحديث ؟ واستصغرنى ، فقلت : حدثنى. فقال : حدثنى جابر بن عبد الله وحدثنا ابن عباس فحدثنى بثمانية أحاديث فأمسكت حماره ، وجعلت أتحفظ ما حدثنى به فلما صلى وخرج قال : ما نفعك ما حدثتك به ، حبستنى ؟ فقلت حدثتنى بكذا وحدثتنى بكذا، فرددت عليه جميع ما حدثنى به فقال : بارك الله فيك تعال غدا إلى المجلس ، فاذا هو عمرو بن دينار (٤٨ ـ ١٢٦ هـ) انظر المحدث الفاصل مخطوطة دمشق ص ١٦ : ب ـ ١٧ : آ ج ١

(٢) انظر المحدث الفاصل ص ١٤٣ : ب فيها أخبار عن ذلك

(٣) انظر كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٢

الحديث[١]، وفى رواية زاد : فقال : وأربعمائة قد فقهوا[٢] . فقبل بداية الربع الأخير من القرن الأول أضحت الكوفة محط أنظار أهل الحديث، ولم يقتصر هذا النشاط على قطر دون آخر ، بل كان عاماً شاملا . فحلقات العلم كانت تعقد فى كل مكان ، ففى جامع دمشق حلقات أبى الدرداء التى تضم نيفا وخمسمائة وألف طالب[٣] إلى جانب حلقات غيره من شيوخ دمشق ، التى كان يكتب فيها الطلاب[٤] ، كما كانت تعقد فى حمص وحلب والفسطاط والبصرة والكوفة واليمن إلى جانب حلقات ينبوع الإسلام فى مكة والمدينة ، فقد كانت فى المدينة كالروضة يختار منها طالب العلم ما يشاء[٥] .

وفى عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى ، كان المسجد الحرام يغص بطلاب العلم ، حتى إن الخليفة أعجب بهم عند ما زاره فوجد فيه حلقاً لا تحصى ، تضم أبناء المسلمين وطلاب العلم ، فسأل عن شيوخ هذه الحلقات ، فكان فيها عطاء ، وسعيد بن جبير ، وميمون بن مهران ، ومكحول ، ومجاهد ، وغيرهم ، فحث أبناء قريش على طلب العلم والمحافظة عليه[٦] .

وسيتجلى لنا نشاط المراكز العلمية فى الدولة الإسلامية عند ما نتكلم عن انتشار العلم فى عهد الصحابة والتابعين .

---

(١) المحدث الفاصل ٨١ : آ وكانت دير الجماجم وقعة مشهورة بين الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث سنة (٨٢ هـ) وفيها قتل عبد الرحمن بن الأشعث وكثير من القراء . انظر تاريخ الطبرى ص ١٥٧ ج ٥ . ودير الجماجم بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف البر المسالك إلى البصرة : معجم البلدان ص ١٣١ ج ٤ .

(٢) المحدث الفاصل ص ١٣٥ : ب .

(٣ و ٤) انظر التاريخ الكبير لابن عساكر ص ٦٩ ج ١

(٥) انظر المحدث الفاصل ص٩ : ب

(٦) انظر المرجع السابق ص ٣٥ : ب ـ ٣٦

وقد قيض الله لهذه الأمة أساتذة أوتوا العلم والأدب وأصول التربية ، ترعرعوا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدى أصحابه الكرام، واجتهد القائمون على التعليم منهم فى ذلك العصر فى تعليم تلاميذهم وجلسائهم ، واعتنوا عناية عظيمة بالنشء الجديد ، فنرى اسماعيل بن رجاء — من أقران الأعمش — يجمع الصبيان ويحدثهم[١] . ومر رجل بالأعمش — سليمان بن مهران — وهو يحدث فقال له : تحدث هؤلاء الصبيان ؟ فقال الأعمش : هؤلاء الصبيان يحفظون عليك دينك[٢] . وكان مطرف بن عبد الله يقول : لأنتم أحب إلى مجالسة من أهلى[٣] . وكان سفيان الثورى يقول : لو لم يأتونى — (يعنى طلاب الحديث) لأتيتهم فى بيوتهم[٤] . وكانوا يعلمونهم الحديث والأدب فيه ، واحترامه واجلاله[٥] ، وكانت لحلقات العلم مكانة جليلة ، وكان طلاب الحديث يوقرون أساتذتهم ، ويفخرون بخدمتهم ، والأخذ عنهم ، وكان سلوكهم مع أساتذتهم فى غاية الأدب والاحترام ، سواء أكان هذا فى التلقى عنهم أم فى مناقشتهم ، ويؤثر عن كثير من الصحابة والتابعين نصائح لطلاب العلم فى هذا الصدد[٦] .

وأما حلقات العلم وشيوخها وطريقة تعليمهم فإنها تحتاج إلى بحث كبير قائم بذاته ، وإن لدينا من الأخبار ما يملأ أكثر من مجلد فى هذا . ولكن المقام يضيق بإيرادها ، ويكفينا أن نذكر شيئا موجزا عن الصحابة والتابعين يتناول طريقة تعليمهم .

---

(١) انظر كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٠

(٢) شرف أصحاب الحديث ص ٨٩ : آ وانظر المحدث الفاصل نسخة دمشق ص ١٥ ج ١

(٣) شرف أصحاب الحديث ص ١٠٢ : ب

(٤) شرف أصحاب الحديث ص ١٠٣ : ب واشتهر عن عروة بن الزبير أنه كان يتألف الناس على حديثه ، انظر كتاب العلم لابن حرب ص ١٨٧

(٥) انظر طبقات ابن سعد ص ٣٤٥ ج ٥

(٦) انظر العقد الفريد ص ٧٨ ج ٢ .

وأول ما يسترعى انتباهنا فى هذا خطوط كبرى تعتبر من الأسس الهامة فى التربية الحديثة ، من هذه الأسس :

١ — مراعاة أحوال المحدثين :

فقد لاحظ الصحابة والتابعون أحوال طلابهم ملاحظة دقيقة ، فكانوا لايحدثونهم إلا بما يناسب مداركهم ، ويشرحون الأحاديث ، ويبينون مناسباتها حتى يدرك الطلاب ما يرويه شيوخهم ، يروى عن ابن مسعود أنه قال : « إن الرجل ليحدث بالحديث فيسمعه من لا يبلغ عقله فهمَ ذلك الحديث ، فيكون عليه فتنة[١] » وفى رواية عنه « ما أنت محدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم[٢] » وعن حماد بن زيد قال : قال أيوب : لا تحدثوا الناس بما لايعلمون فتضروهم[٣] .

٢ — الحديث لمن هو أهل له :

وكما حرص الصحابة والتابعون على مراعاة أحوال الرواة ، حرصوا على نشر الحديث بين أهله وطلابه ، ورفعه عن السفهاء وأهل الغايات والأهواء ، فكانوا يحاولون جهدهم ألا يحضر مجالسهم إلا طلاب العلم ، وفى هذا كان يقول الزهرى : « ... وهجنته (أى الحديث) نشره عند غير أهله[٤] » ، وكان الأعمش

---

(١) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٢٩ : ب

(٢) تذكرة الحفاظ ص ١٥ ج ١ وروى نحو هذا عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، انظر المحدث الفاصل ص ١٤٣ : ب

(٣) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٢٩ : ب .

(٤) المحدث الفاصل ص ١٤١ : آ والهجنة والتهجين الأمر تقبيحه .

يرى أن إضاعة الحديث التحديث به عند غير أهله[١] » وكثيرا ما كان يقول : « لاتنثروا اللؤلؤ على أطلاف الخنازير يعنى الحديث[٢] » أى لا تحدثوا الحديث لغير أهله .

ورأى الأعمش شعبة بن الحجاج يحدث قوما ، فقال له : ويحك يا شعبة ! تعلق الدُّرّ فى أعنـــاق الخنازير[٣] ؟ قال مجالد بن سعيد : حدثنى الشعبى بحديث.. فرويته عنه ، فأتاه قوم فسألوه عنه، فقال : ماحدثت بهذا الحديث قط ، فأتونى ، فأتيته ، فقلت : أو ما حدثتنى ؟ قال أحدثك بحديث الحكماء ، وتحدث به السفهاء[٤] ! ؟ وكان يقول : إنما كان يطلب هذا العلم من جمع النسك والعقل ، فإن كان عاقلا بلا نسك قيل : هذا لا يناله ، وإن كان ناسكا بلا عقل قيل : هذا أمرٌ لا يناله إلا العقلاء[٥] .

وأختتم هذه الفقرة بذكر شىء من أساليب الحيطة ، التى كان يفعلها زائدة ابن قدامة[٦] مع من يأتيه طالباً الحديث ، حرصاً منه على صيانة السنة المطهرة وحفظها . روى عمرو بن المهلب الأزدى قال : « كان زائدة لا يحدث أحداً حتى يمتحنه ، فإن كان غريبا قال له : من أين أنت ؟ وإن كان من أهل البلد قال : أين مصلاك ؟ ويسأل كما يسأل القاضى عن البينة . فإذا قال له سأل عنه ، فإن كان صاحب بدعة قال : لا تعودن إلى هـذا المجلس ،

(١ و ٢) المحدث الفاصل ص ١٤١ : آ

(٣) المحدث الفاصل ص ١٤٢ : آ

(٤) المحدث الفاصل ص ١٤١ : ب ، ولعل الشعبى أنكر ذلك لأنه خفى من القوم السفهاء أن يتخذوا ما حدث به ذريعة إلى أهوائهم .

(٥) تذكرة الحفاظ ص ٧٧ ج ١

(٦) انظر ترجمته فى تذكرة الحفاظ ص١٩٤ ج ١ وهو إمام حجة توفى سنة ١٦١ هـ .

فإن بلغه عنه خير أدناه وحدثه ، فقيل له : يا أبا الصلت لم تفعل هذا ؟ قال : أكره أن يكون العلم عندهم ، فيصيروا أئمة يحتاج إليهم ، فيبدلوا كيف شاءوا [١] » .

قد يُظَنُّ أن فى تشدد زائدة منعاً للعلم ونشره ، وأن طريقته هذه تتنافى مع رسالة المعلمين المرشدين الهادين ، والحقيقة أن منهجه هذا كان من وسائل المحافظة على السنة ، كما كان حائلا دون أهل البدع والأهواء من أن يستغلوا الحديث الشريف ، أو يحرفوه تبعاً لأهوائهم .

٣ — طالب الحديث بعد القرآن الكريم :

من البدهى أن يهتم المسلمون بكتاب الله تعالى وحفظه ودراسته وتلاوته ، وفهمه وتفسيره . وقد أجمع المحدثون على أنه لا ينبغى أن يطلب المرء الحديث إلا بعد قراءته القرآن وحفظه كله أو أكثره ، ثم يبدأ سماع الحديث وكتابته عن الشيوخ ، وكان كثير من المحدثين لا يقبلون الطلاب فى حلقاتهم إلا إذا وثقوا من دراستهم القرآن الكريم وحفظ بعضه على الأقل، وفى هذا قال حفص بن غياث : أتيت الأعمش فقلت : حدثنى ، قال : أتحفظ القرآن ؟ قلت : لا . قال : اذهب فاحفظ القرآن ، ثم هلم أحدثك . قال . فذهبت فحفظت القرآن ، ثم جئته ، فاستقرأنى ، فقرأته ، فحدثنى [٢] .

٤ — عدم تتبع المنكر من الحديث :

خشى الصحابة والتابعون من بث بعض الأحاديث الواهية والضعيفة ،

---

(١) المحدث الفاصل ص ١٤٢ : ب

(٢) المحدث الفاصل نسخة دمشق ص ١٩ ج ١ .

فنهوا عن روايتها وطلبوا التثبت فى الرواية كما سبق أن ذكرنا ، وحثوا على رواية الأحاديث المعروفة ونشرها بين طلاب العلم وخاصة الجدد منهم . وفى هذا يروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب : « حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ! ! أتحبون أن يكذّب الله ورسوله[1] » . قال الإمام الذهبى : « فقد زجر الإمام على رضى الله عنه عن رواية المنكر ، وحث على التحديث بالمشهور ، وهذا أصل كبير فى الكف عن بث الأشياء الواهية ، والمنكرة من الأحاديث فى الفضائل والعقائد ، والرقائق ، ولا سبيل إلى معرفة هذا من هذا إلا بالامعان فى معرفة الرجال[2] » .

وأما الأحاديث المنكرة والشاذة وطرقها ، والأحاديث الموضوعة — فقد كان يحفظها الشيوخ حتى إذا ذكر لهم حديث منها بينوه ، وكانوا يروون منها لطلابهم بعد بيان علتها ، وبعد أن يقطع الطلاب مرحلة جيدة فى دراساتهم . وسنبين هذا عندما نتكلم عن الحديث الموضوع .

٥ — التنويع والتغيير دفعا للملل :

عرف الصحابة والتابعون ما يجدد نشاط طلابهم ، فعملوا به ، وأفادوا منه لتتحقق الغاية من دروسهم وحلقاتهم ، فكانوا يتناولون دراسة الأحاديث المختلفة حينا ، ويتكلمون فى الرجال أحيانا ، وينتقلون إلى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم تارة ، ويذكرون أسباب ورود الحديث ومناسبته تارة أخرى .

---

(١) تذكرة الحفاظ ص ١٢ — ١٣ جـ ١ وفتح البارى ص ٢٣٥ جـ ١

(٢) تذكرة الحفاظ ص ١٢ — ١٣ جـ ١

فكانت دراسة الحديث شيقة ، تجذب الطالب إليها لتعدد موضوعاتها وتناولها كثيراً من الأمور التى تتعلق بدينه ودنياه . ومع هذا كان شيوخ الحلقات يخشون إدخال السآمة إلى نفوس تلاميذهم ، فكانوا يتخولونهم بالموعظة كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما فعل الصحابة من بعده[١] وكانت السيدة عائشة توصى التابعين بهذا ، فقد قالت لعبيد بن عمير : إياك وإملال الناس وتقنيطهم[٢] . ولهذا كانوا لا يطيلون المجلس حتى لا تضيع الفائدة عليهم ، وفى هذا يقول الإمام الزهرى : « إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب[٣] » (ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يقول — إذا فاض مَنْ عنده بالحديث بعد القرآن والتفسير — : أحمضوا . أى خوضوا فى الشعر وغيره . . . ، وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال : إنى لأستجم قلبى بالشىء من اللهو ، لأقوى به على الحق[٤] .)

وقد كان الصحابة أحيانا يتناولون فى مجالسهم بعض الشعر وأيام الجاهلية ليسروا عن أنفسهم ، فيبدلوا الموضوع ليستعيدوا نشاطهم ، فعن أبى خالد الوالى قال : « كنا نجالس أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فيتناشدون الأشعار ويتذاكرون أيامهم فى الجاهلية[٥] » ، وكان الزهرى يحدث ثم يقول :

---

(١) انظر هذا عن عبد الله بن مسعود فى مسند الإمام أحمد ص ٢٠٢ حديث ٣٥٨١ ج ٥ وجامع بيان العلم ص ١٠٥ ج ١

(٢) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٣٦ : آ

(٣) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٣٦ : آ

(٤) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٤١ واللهو المقصود هنا اللهو المشروع مما يروح القلب ويجدد النشاط .

(٥) جامع بيان العلم ص ١٠٥ ج ١

« هاتوا من أشعاركم ، هاتوا من أحاديثكم ، فإن الأذن محاجة ، وإن للنفس حضة[١] » .

وكان يقول : روحوا القلوب ساعة وساعة[٢]

٦ — احترام حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره :

ذكرت تمسك الصحابة والتابعين بالسنة ، وتقديمها على كل شيء بعد القرآن ، فقد كانوا لا يقبلون رأيا مع السنة مهما يكن شأنه ، ومهما تكن منزلة صاحبه ، وكما تمسكوا بالسنة احترموا مجالس الحديث ، ووقروا حفاظه ، وتأدب الناس مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم شيوخا وطلابا .

عن الأعمش عن ضرار بن مرة قال : كانوا يكرهون أن يحدثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم على غير وضوء[٣] وكان الأعمش إذا أراد أن يحدث وهو على غير وضوء تيمم[٤] . وقال قتادة : لقد كان يستحب أن لا تقرأ الأحاديث التي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على طهور ، وفي رواية إلا على وضوء[٥] ، وروى هذا عن كثير من العلماء .

ويذكر سعيد بن المسيب — وهو على فراش المرض — حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : أجلسوني ، فإني أكره أن أحدث حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجع[٦] .

---

(١) جامع بيان العلم ص ١٠٤ جـ ١ . ج الشراب من فيه رى به ، وج الحديث طرحه وملل سمعه والحضة الشهوة للشيء ، وحضت الإبل عن الحض كرهته وبه اشتهته . انظر القاموس المحيط .

(٢) جامع بيان العلم ص ١٠٥ جـ ١

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص ١٩٨ جـ ٢ والمحدث الفاصل ص ١٤٧ : آ

(٤) جامع بيان العلم وفضله ص ١٩٩ جـ ٢

(٥ و ٦) جامع بيان العلم وفضله ص ١٩٩ جـ ٢ .

قال الرامهرمزى : كان أكثرهم يتطهرون عندما يتصدرون للتحديث فيلبس العالم أحسن ثيابه ، ويتوضأ وضوءه للصلاة ، ومن ذلك قول أبى العالية : « إذا حدثت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فازدهر » ، وكان مالك رضى الله عنه إذا أراد أن يخرج يحدث توضأ وضوءه للصلاة ، ولبس أحسن ثيابه ، ولبس قلنسوة ، ومشط لحيته ، فقيل له فى ذلك ، فقال : « أوقر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] » . وكان مالك أحيانا يحدث أبناء كل قطر حتى لا يزداد الازدحام فى داره ، فكان مناد على بابه ينادى : ليدخل أهل الحجاز ، فلا يدخل غيرهم ، ثم يخرج فينادى أهل الشام[2] ...يفعل هذا حتى لا يكثر الطلاب ، فيكثر السؤال . وتفوت الفائدة جل الحاضرين .

وهناك آداب كثيرة ، وأصول متبعة للسؤال والقراءة والعرض على المحدث ، والجلوس بين يديه ، وحضور حلقات العلم ، تكفلت بذكرها كتب خاصة[3] ، وأفردت لها أبواب فى أكثر كتب مصطلح الحديث وعلومه .

٧ — مذاكرة الحديث :

لم يكن طلاب العلم يكتفون بحضور مجلس الحديث ثم ينصرفون إلى أعمالهم حتى يحين المجلس القادم ، من غير أن يذاكروا ما يسمعونه . ولم يكن حضور حلقات العلم للتسلية وشغل أوقات الفراغ . . ، متى شاء الطالب حضر ومتى أحب

---

(١) انظر المحدث الفاصل ص ١٤٦ : ب

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٤٧ : ١

(٣) فقد ألف الخطيب كتابا كبيرا فى هذا سماه (الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع) تعرض فيه لجميع مايتعلق بطلاب الحديث وأساتذتهم ودروسهم ومذاكرتهم . . الخ ، ولا يزال هذا المؤلف مخطوطا ، ومنه نسخة كاملة فى دار الكتب فى الإسكندرية ، صورت عنها نسخة ونقلت إلى دار الكتب المصرية فى « ١٩٦ » لوحة ، كل لوحة فوتوغرافية صفحتان من النسخة الأصلية ، وقد باشرت تحقيقه مع بعض اخوانى ، أرجو أن نوفق لنشره فينتفع المسلمون به .

انصرف منها ، كلا ، بل كان الطلاب يحضرون فى أوقات معينة يخصصها لهم أستاذهم بعد صلاة الفجر مثلا حتى الضحى ، أو بين الظهر والعصر ، فيتسابق الطلاب إلى الحلقة قبل انعقادها ، ليتخذوا أماكنهم[١] ، حتى إذا ما حضر الأستاذ كان جميع الطلاب على استعداد لتلقى الحديث عنه . وقد يتغيب عن الحلقة طالب ، فيسأل عنه الشيخ ويعرف سبب غيابه ، وقد يكلف بعض إخوانه السؤال عنه ، فالحلقات فى العصور الماضية كانت كالفصول النظامية فى مدارسنا الحديثة .

لهذا كان أصحاب الحديث يحرصون على حضور مجالسه ، ويحفظون ما يسمعونه ، ويذاكرونه .

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يفعلون هذا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعن أنس بن مالك قال : « كنا نكون عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فنسمع منه الحديث ، فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه[٢] » .

وكان التابعون وأتباعهم يذاكرون حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام جماعات وأفرادا ، عن أبى صالح السمان[٣] قال حدثنا ابن عباس يوما بحديث فلم نحفظه ، فتذاكرناه بيننا حتى حفظناه[٤] . وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عطاء قال : « كنا نكون عند جابر بن عبد الله فيحدثنا ، فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه[٥] » .. ، وعن مسلم البطين قال : « رأيت أبا يحيى الأعرج — وكان عالما بحديث ابن عباس — اجتمع هو وسعيد بن جبير فى مسجد الكوفة ،

---

(١) انظر انتقاد المجالس فى الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع . حيث بسط القول فى هذا .

(٢) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ٤٦ : ب

(٣) لم يذكر الحاكم لقبه وهو من أصحاب أبى هريرة وقد سمع من ابن عباس وهو ذكوان المدنى . انظر تهذيب التهذيب ص ١٣٢ ج ١٢ .

(٤) معرفة علوم الحديث ص ١٤١

(٥) كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٠ : آ

فتذاكرا حديث ابن عباس[١] » . وقال مرة عبد الرحمن بن أبي ليلى : « إحياء الحديث مذاكرته ، فتذاكروه ، فقال عبد الله بن شداد : يرحمك الله ! كم من حديث أحييته من صدري قد كان مات[٢] » .

وقد تطول مجالس المذاكرة من أول الليل حتى نداء الفجر[٣] ، وكان من طلاب العلم من ينتظر انصرام الليل ليلقى إخوانه فيذاكرهم ، وكان إبراهيم النخعي يقول : إنه ليطول علي الليل حتى ألقى أصحابي فأذاكرهم[٤] . ومما يروى عن شعبة بن الحجاج أنه خرج من عند عبد الله بن عون ، وقد عقد بيديه جميعاً فكلمه بعض إخوانه ، فقال : « لا تكلمني فإني قد حفظت عن ابن عون عشرة أحاديث أخاف أن أنساها[٥] . »

هكذا كان يذاكر أصحاب الحديث حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يثبت في صدورهم ولا ينسوه .

وكان بعضهم يتخذ التحديث بما سمع وسيلة إلى حفظه ، فإذا لم يجد من يحدثه حدث خادمه أو بنيه ، وفي هذا يروى عن الإمام الزهري أنه كان يبتغي العلم من عروة وغيره ، فيأتي جارية له نائمة فيوقظها فيقول لها : حدثني فلان بكذا ، وفلان بكذا فتقول : مالي ولهذا ، فيقول : قد علمت أنك لا تنتفعين به ، ولكن سمعت الآن ، فأردت أن استذكره[٦] ، ولا يجد إسماعيل بن رجاء من يذاكر الحديث معه فيجمع غلمان المكاتب ويحدثهم كيلا ينسى حديثه[٧] .

(١) الجامع لأخلاق الرواي وآداب السامع ص ١٨٤ : آ

(٢) كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٠ : آ (٣) انظر المرجع السابق ص ١٩١ : ب .

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٨٢ : ب

(٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص ٤٧ : آ

(٦) تاريخ الإسلام للذهبي ص ١٤٨ ج ٥

(٧) انظر المحدث الفاصل نسخه دمشق ص ١٥ : ب ، وانظر عيون الأخبار ص ١٣٤ ج ٢ وتهذيب التهذيب ص ٢٩٦ ج ١

وكثيراً ما كانت تعقد مجالس المذاكرة وتقام المناظرات بين أصحاب الحديث لتعرف طرقه ، ويكشف عن القوى والضعيف منها ، وفى هذا يقول يزيد بن هارون : أدركت الناس يكتبون عن كل — من المشايخ الأقوياء والضعفاء — فإذا وقعت المناظرة حصلوا .(١)

مما سبق يتبين لنا إهتمام الصحابة والتابعين وأتباعهم بالسنة المطهرة ، وحرصهم على الحديث النبوى الشريف ، فعرفنا كيف كانوا يحدثون طلابهم ، وكيف كانوا يعتنون بصغارهم ، ويحرصون على تربيتهم التربية الصالحة ، على هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، كما عرفنا آدابهم فى الحديث وطلبه ، واحترامهم لعلمائهم ؛ وحرص الطلاب على دراسة السنة وحفظها ومذاكرتها وتثبيتها فى صدورهم والعمل بها ، كل ذلك يعطينا صورة حية عن النشاط الحديثى فى ذلك العصر ، صورة مخطوطة عن الحركة العلمية القوية التى كانت فى عصر الصحابة والتابعين ، تلك الحركه التى كان لها الفضل العظيم فى حفظ السنة .

وإن ما قدمناه لا يعدو الخطوط العريضة لتلك الحركة الواسعة ، التى كانت فى الصدر الأول وقد أغفلنا كثيراً من التفصيلات التى تتعلق بسن السماع وطريقة الرواية والتلقى ، وكيفية القراءة على المحدث ، وكل ما يتعلق بدرجات تحمل الحديث وأدائه ، مما تكفلت بشرحه كتب مصطلح الحديث وعلومه .

وهكذا خرجنا من هذا البحث بخلاصة هامة ، هى أن الحديث الشريف لقى عناية وحفظا واهتماماً عظيما من أبناء ذلك العصر ، الذين تولوا نقله بأمانة وإخلاص إلى الجيل الذى تلاهم ، ثم أدت الأجيال المتعاقبة هذه الأمانة حتى وصلت إلينا فى أمهات الكتب الصحيحة .

---

(١) المحدث الفاصل ص٨٣ : ب ، والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص١٦٧ : آ .

انتشار الحديث في عصر الصحابة والتابعين

انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، بعد أن عم الإسلام الجزيرة العربية كلها ، وأصبحت هذه البلاد قلعة حصينة للإسلام ، وقاعدة تنبعث منها أضواء الهداية في العالم ، وقد عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته لواء جيش أسامة لفتح الشام ، ولكن المنية اخترمته قبل إنفاذه ، وخلفه الصديق فوجه جيش الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بلاد الشام ، واتسعت الفتوحات الإسلامية ، وامتدت الدولة الإسلامية حول الجزيرة العربية ، ففتحت بلاد الشام كلها (فلسطين والأردن وسوريا ولبنان) والعراق جميعها في سنة سبع عشرة هجرية[١] ، وفتحت مصر سنة عشرين من الهجرة[٢] ، ووصل المسلمون إلى ما وراء النهر في خلافة عثمان بعد أن فتحوا (فارس) سنة إحدى وعشرين ، ووصلوا سمرقند سنة ست وخمسين[٣] ، وما لبثت الرايات الإسلامية أن خفقت في ربوع الأندلس غرباً سنة ثلاث وتسعين[٤] وارتفعت بنود الإسلام وأعلامه على ذرا جبال البرانس[٥] سنة ست وتسعين ، وعلى حدود الصين شرقاً سنة ست وتسعين أيضاً[٦] .

كان في طليعة الجيوش الإسلامية صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ٢٩٩ ج ١ وما بعدها .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٣٦ ج ١

(٣) انظر المرجع السابق ص ٢٧٩ وما بعدها ج ١

(٤) انظر المرجع السابق ص ٣١٣ ج ١

(٥) انظر المرجع السابق ٣١٨ وما بعدها ج ١

(٦) انظر المرجع السابق ص ٣٠٥ ج ١

وكانوا كلما دخلوا بلداً أقاموا فيه المساجد[1] ، ومكث فيه بعض الصحابة والتابعين يدبرون أموره ، ويبشرون فيه الإسلام ، ويعلمون أبناءه القرآن الكريم وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وكان الخلفاء يمدون البلاد الجديدة بالعلماء ، وقد استوطن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم تلك الأمصار ، يرشدون أهلها ، ويعلمون أبناءها . وقد دخل الناس فى دين الله أفواجا ، والتفوا حول أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ينهلون من الينابيع التى أخذت عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وتخرج فى حلقاتهم التابعون الذين حملوا لواء العلم بعدهم ، وحفظوا السنة الشريفة ، وهكذا أصبحت فى الأقاليم والأمصار الإسلامية مراكز علمية عظيمة ، تشع منها أنوار الإسلام وعلومه ، إلى جانب مراكز الإشعاع الأولى التى أمدت هذه الأقطار بالأساتذة الأول .

ويجدر بنا أن نذكر لمحة موجزة عن مراكز التعليم هذه فيما يخص بحثنا ، فنتناول أهم تلك المراكز العلمية والقائمين عليها فى الأمصار الإسلامية :

١ — المدينة المنورة :

هى دار الهجرة ، وحاضرة الدولة الإسلامية ، التى آوت الرسول الكريم بعد هجرته ، ومعه الصحابة رضوان الله عليهم ، وشهدت الجانب التشريعى الأول فى صدر الإسلام ، وفى مساجدها التف المسلمون حول محمد عليه الصلاة والسلام ، يتلقون القرآن العظيم ، ويسمعون الحديث الشريف ، وفيها شاهدوا قضاءه وقسمته للغنائم ، واستنفاره للجيوش ، وموادعته لخصومه ، وإليها التجأ المسلمون المهاجرون بدينهم ، تحت ضغط قريش والقبائل الأخرى فى أطراف الجزيرة العربية ، وتعلقت بها الأنظار ، وعقدت عليها الآمال ، حتى كان صلح الحديبية

(١) انظر الخطط المقريزى ص ٢٤٦ ج ٢

ثم الفتح الأعظم ، فأصبحت مركز الحجاز السياسى ، وعاصمة الدولة الإسلامية إلى أوائل خلافة على رضى الله عنه .

وقد يخطر ببالنا أن المهاجرين عادوا إلى مكة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، ولكن التاريخ يؤكد لنا أن الصحابة والخلفاء آثروا أن يجاوروا رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] ، ويقيموا حيث أقام . لذلك نرى فى المدينة كبار الصحابة الذين رسخوا فى العلم ، وكانت لهم مكانة عظيمة فى الحديث ، ومن هؤلاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم وأبو هريرة وعائشة أم المؤمنين ، وعبد الله بن عمر وأبو سعيد الخدرى ، وزيد بن ثابت الذى اشتهر بفهم القرآن والحديث والفرائض خاصة ، وكانت له مكانة رفيعة عند الخلفاء الراشدين حتى إنهم ما كانوا يقدمون عليه أحداً فى القضاء أو الفتوى والفرائض والقراءة[٢] .

وقد تخرج فى المدينة كبار التابعين ، ومنهم سعيد بن المسيب ، وعروة ابن الزبير ، وابن شهاب الزهرى ، وعبيد الله بن عتبة بن مسعود ، وسالم ابن عبد الله بن عمر ، ومحمد بن المنكدر وغير هؤلاء ممن كانوا مرجع الأمة فى السنة والقضاء والفتوى .

٢ — مكة المكرمة :

لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، خلف فيها معاذاً يعلم

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ص ٣٢٨ ج ٥ وفيه كان يكره المسنون المهاجرون أن يعود أحدهم إلى مكة بعد أن فارق الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة .

(٢) انظر تاريخ دمشق ص ٢٨٤ ج ٦ وسير أعلام النبلاء ص ٢١٥ ج ١ وتذكرة الحفاظ ص ٣٠ ج ١ .

أهلها الحلال والحرام ، ويفقههم فى الدين ، ويقرئهم القرآن الكريم ، وكان معاذ من أفضل شباب الأنصار علماً وحلماً وسخاء ، شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها ، وكان يعدُّ من أعلم الصحابة بالحلال والحرام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه : « معاذ بن جبل أعلم الناس بحرام الله وحلاله[١] » وقال عليه الصلاة والسلام : « خذوا القرآن من أربعة من ابن مسعود ، وأبى ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبى حذيفة[٢] » وقد روى عنه عدد كبير من الصحابة ، منهم عبد الله بن عباس ، الذى كانت له الصدارة بعد أن عاد من البصرة إلى مكة المكرمة ، كما كان فى مكة عتاب ابن أسيد الذى أمّره رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة فى أهلها[٣] ، وأخوه خالد بن أسيد ، والحكم بن أبى العاص ، وعثمان بن أبى طلحة وغيرهم[٤] .

وقد تخرج فى مكة على أيدى الصحابة مجاهد بن جبر ، وعطاء بن أبى رباح ، وطاوس بن كيسان ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وغيرهم[٥] .

ولا بد أن نذكر هنا على منزلة مكة المكرمة ، وأثرها فى تبادل الثقافة ونشر الحديث النبوى فى مواسم الحج ، حيث يلتقى فيها المسلمون ويجتمع أكثرهم بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالتابعين ، يحملون معهم الكثير الطيب من حديثه عليه الصلاة والسلام إلى بلادهم ، ولا تزال لمكة والمدينة هذه المكانة إلى يومنا هذا ، وستبقى ما بقى الإسلام إلى يوم الدين .

---

(١) سير أعلام النبلاء ص ٣٢٠ ج ١

(٢) سير أعلام النبلاء ص ٣١٩ ج ١ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٢١ ج ١ .

(٤) انظر معرفة علوم الحديث ص ١٩٢ .

(٥) انظر فجر الإسلام ص ١٧٤ .

٣ — الكوفة :

لقد نزل فى الكوفة عدد كبير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى عهد عمر رضى الله عنه ، حين فتحت العراق للمسلمين ، وأصبحت الكوفة والبصرة قاعدتى الفتح الإسلامى فى خراسان وفارس والهند ، فقد هبط الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة ، وسبعون من أهل بدر[١] من أشهرهم على بن أبى طالب ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وعبد الله بن مسعود وغيرهم[٢] . وكان لعبد الله بن مسعود أثر كبير فى رفع اسم الكوفة ، لما بذله فى سبيل تعليم أبنائها ، وقد تخرج فى هذه المدرسة كبار التابعين الذين حفظوا الشريعة وحافظوا على السنة المطهرة ، فقد كان فى الكوفة ستون شيخاً من أصحاب عبد الله بن مسعود ، وكان فى بنى ثور الذين نزلوا الكوفة ثلاثون رجلا ، ما فيهم رجل دون الربيع بن خثيم[٣] المشهور بعبادته وورعه وعلو مكانته فى الحديث ، وكان فيها كميل بن زيد النخعى ، وعامر بن شراحيل الشعبى ، وسعيد بن جبير الأسدى ، وإبراهيم النخعى ، وأبو إسحاق السبيعى ، وعبد الملك بن عمير[٤] وغيرهم .

٤ — البصرة :

ونزل البصرة من الصحابة رضوان الله عليهم أنس بن مالك ، وكان إمام البصرة فى الحديث ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن عباس الذى ولى إمرتها لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ونزل فيها غير هؤلاء

(١) انظر طبقات ابن سعد ص ٤ ج ٦ .
(٢) انظر معرفة علوم الحديث ص ١٩١ .
(٣) انظر طبقات ابن سعد ص ٤ ج ٦ .
(٤) انظر معرفة علوم الحديث ص ٢٤٣ — ٢٤٨ .

عتبة بن غزوان ، وعمران بن حصين ، وأبو برزة الأسلمى ، ومعقل بن يسار ، وعبد الرحمن بن سمرة ، وأبو زيد الأنصارى ، وعبد الله بن الشخير ، والحكم وعثمان بنا أبى العاص وغيرهم[١] .

وأشهر من تخرج فى مدرسة البصرة الحسن البصرى الذى أدرك خمسمائة من الصحابة ، ومحمد بن سيرين ، وأيوب السختيانى ، وبهز بن حكيم القشيرى ، ويونس بن عبيد ، وخالد بن مهران الحذاء ، وعبد الله بن عون ، وعاصم بن سليمان الأحول ، وقتادة بن دعامة السدوسى ، وهشام بن حسان[٢] وغيرهم .

وأما بغداد فلم تشتهر إلا منذ عهد المنصور العباسى .

٥ — الشام :

نزل الشام من الصحابة عدد كبير كانوا فى جيش الفتح الإسلامى ، وقد استوطن أكثرهم المدن الكبرى بادىء الأمر ، ثم ما لبث سكان القرى أن تمسكوا ببعضهم عندما شعروا بالفائدة العلمية الكبرى التى حملها إليهم المسلمون ، ومن الصعب حصر عدد الصحابة الذين حلوا فى بلاد الشام ، ولكن الوليد بن مسلم يقرب هذا لنا فيقول : « دخلت الشام عشرة آلاف عين رأت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم[٣] » ، وكان يزيد بن أبى سفيان قد كتب إلى عمر بن الخطاب ليعينه بالعلماء ، ليفقهوا أهل الشام[٤] فأرسل إليه معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبا الدرداء — الذين توزعوا فى بلاد الشام ، فأقام عبادة

---

(١) انظر معرفة علوم الحديث ص ١٩٢ .
(٢) انظر معرفة علوم الحديث ص ٢٤٨ .
(٣) التاريخ الكبير ص ١٦٩ ج ١
(٤) انظر غوطة دمشق ص ١٣١ .

فى حمص ، وأبو الدرداء فى دمشق ، ومعاذ فى فلسطين ، ثم أرسل عمر بعد هؤلاء عبد الرحمن بن غنم[١] .

ونشطت الحركة العلمية فى بلاد الشام وخاصة فى دمشق أيام الأمويين ، وما زال بها فقهاء ومحدثون ومقرئون[٢] ، وانتشر فيها العلماء حتى أضحت قرية داريا حاضرة العلم والأدب فى غوطة دمشق ، ويقول السمعانى : إنه كان فى داريا جماعة كثيرة من العلماء المحدثين قديماً وحديثاً ، وممن نبغ فيها من الصحابة عبد الرحمن بن يزيد الأزدى الدارانى ، ويعد فى الطبقة الثانية من فقهاء الشام[٣] .

وقد نزل بلاد الشام غير الصحابة المذكورين أبو عبيدة بن الجراح ، وبلال ابن رباح ، وشرحبيل بن حسنة ، وخالد بن الوليد ، وعياض بن غنم ، والفضل ابن العباس بن عبد المطلب — وهو مدفون بالأردن — ، وعوف بن مالك الأشجعى ، والعرباض بن سارية[٤] وغيرهم .

وتخرج على أيدى الصحابة فى هذه المدرسة كبار علماء الشام من التابعين ، منهم سالم بن عبد الله المحاربى قاضى دمشق ، وأبو ادريس الخولانى (عائذ بن عبد الله) الذى تولى القضاء بدمشق لمعاوية وابنه يزيد ، ومنهم أبو سليمان الدارانى ، قاضى دمشق لعمر بن عبد العزيز ، وليزيد وهشام ابنى عبد الملك ، قضى لهم ثلاثين سنة ، ومنهم عمير بن هانىء العنسى الدارانى المحدث[٥] .

---

(١) انظر فجر الإسلام ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٢) انظر الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ١٣٨ .

(٣) انظر غوطة دمشق ص ١٣٤ .

(٤) انظر معرفة علوم الحديث ص ١٩٣ .

(٥) انظر غوطة دمشق ص ١٣٤ — ١٣٥ وانظر تاريخ داريا للقاضى عبد الجبار الخولانى ص ٢٩ — ٧٢ .

وتخرج فى هذه المدرسة عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى ، الذى يقرن بمالك وأبى حنيفة ويلقب بإمام أهل الشام ، ومكحول الدمشقى ، وعمر بن عبد العزيز ، ورجاء بن حيوة[١] ، وبحير بن سعد الكلاعى ، وثور بن يزيد الكلاعى ، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر[٢] وغيرهم .

٦ — مصر :

دخل المسلمون مصر فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بإمرة عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وكان معه من الصحابة عدد كبير منهم الزبير بن العوام ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مُخَلَّد ، والمقداد بن الأسود ، كانوا على رأس المدد الذى أرسله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص[٣] ، كما كان معه عبد الله ابن عمرو : أحد الصحابة المكثرين عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والذى كان يدون الحديث بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد مكث بمصر إلى مابعد وفاة والده ، وعنه روى كثير من محدثيها .

ونزل مصر من الصحابة عقبة بن عامر الجهنى ، وخارجة بن حذافة وعبد الله ابن سعد بن أبى سرح ، ومحمية بن جزء ، وعبد الله بن الحارث بن جزء ، وأبو بصرة الغفارى ، وأبو سعد الخير ، ومعاذ بن أنس الجهنى ، ومعاوية بن حُدَيج ، وزياد بن الحارث الصدائى وغيرهم[٤] .

وتخرج على أيدى هؤلاء فى هذه المدرسة ، يزيد بن أبى حبيب محدث

---

(١) انظر فجر الإسلام ص ١٨٩ .

(٢) انظر معرفة علوم الحديث ص ٢٤٢ .

(٣) انظر تاريخ الإسلام السياسى ص ٢٣٦ ج ١ .

(٤) انظر معرفة علوم الحديث ص ١٩٣ وانظر فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢٤٨ — ٣١٩ ، وانظر حسن المحاضرة ص ٧٢ وما بعدها ج ١ .

الديار المصرية ، وعمر بن الحارث ، وخير بن نعيم الحضرمى ، وعبد الله بن سليمان الطويل ، وعبد الرحمن بن شريح الغافقى ، وحيوة بن شريح التجيبى ، وغيرهم ، وقد كان ليزيد بن أبى حبيب أثر بعيد فى نشر الحديث فى مصر ، فقد تتلمذ عليه الليث بن سعد ، وعبد الله بن لهيعة[١] اللذان تتلمذ عليهما خلق كثير ، وكانا فى عصرهما محدثى الديار المصرية .

٧ — المغرب والأندلس :

كان عمرو بن العاص قد وصل إلى برقة وطرابلس سنة (٢١ هـ) فى عهد عمر بن الخطاب ، فاستأذن عمرو الخليفة بفتح أفريقية فلم يأذن له ، فاستجاب لأمر أمير المؤمنين وعاد إلى مصر ، فكان عمرو وأصحابه أول المسلمين الذين دخلوا أطراف المغرب ، وعند ما تولى عثمان رضى الله عنه الخلافة أذن لأمير مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح بغزو أفريقية ، وكان ذلك سنة (٢٥ هـ) ثم أمده بجيش من المدينة فيه جماعة من الصحابة ، منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن جعفر ، والحسن والحسين ، وعبد الله ابن الزبير ، ولقيهم عقبة بن نافع ببرقة ، فتابعوا فتح البلاد[٢] ، ثم خرج لفتح المغرب معاوية بن حُديج سنة (٣٤ هـ) وكان فى غزاته هذه جماعة من المهاجرين والأنصار[٣] ، وقال سليمان بن يسار : (غزونا أفريقية مع بن حُديج ومعنا من المهاجرين والأنصار بشر كثير[٤]) . ثم ولى عقبة بن نافع المغرب ، وكان فى جيشه كثير من الصحابة والتابعين وهو الذى فتح المغرب الأقصى ووطد أركان الإسلام فى شمال إفريقية[٥] .

(١) انظر معرفة علوم الحديث ص ٢٤١ .
(٢) انظر الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ص ٦٧ — ٧٠ ج ١ .
(٣) و (٤) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص ١٩٣ .
(٥) انظر فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٣ وما بعدها . والاستقصا ص ٦٩ — ٧٠ ج١ .

وقد نزل أفريقية من الصحابة غير الذين ذكرناهم مسعود بن الأسود البلوى أحد الصحابة الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، والمِسْوَرُ ابنُ مَخْرَمَة ، والمقداد بن الأسود الكندى أحد الصحابة السابقين[١] ، وبلال ابن حارث بن عاصم المزنى صاحب لواء مزينة يوم الفتح ، وجبلة بن عمرو ابن ثعلبة أخو أبى مسعود البدرى ، كان فاضلا من فقهاء الصحابة ، وسلمة ابن الأكوع الصحابى المشهور وغيرهم كثير[٢] .

ودخل أفريقية من التابعين خلق كثير منهم السائب بن عامر بن هشام ، ومعبد أخو عبد الله بن عباس . وعبد الرحمن بن الأسود ، وعاصم بن عمر بن الخطاب ، وعبد الملك بن مروان ، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وسليمان بن يسار فقيه المدينة ، وعكرمة مولى ابن عباس[٣] ، وأبو منصور والد يزيد بن منصور من كبار التابعين ، كما أرسل عمر بن عبد العزيز عشرة من التابعين يفقهون أهل أفريقية منهم : حيان بن أبى جبلة ، واسماعيل بن عبيد الله الأعور ، واسماعيل بن عبيد[٤] ، وعبد الرحمن بن رافع التنوخى الذى ولى قضاء أفريقية ، وسعيد بن مسعود النجيبى وغيرهم[٥] ممن ساهموا فى نشر الإسلام وتعليم أبناء البلاد وتفقيههم .

---

(١) انظر الاستقصا ص ٢٥ — ٨٠ ج ١ .

(٢) انظر فتوح مصر وأخبارها ص ٢٤٨ — ٣١٩ . وطبقات علماء أفريقية ص ١٦ — ١٧ .

(٣) لم يدخل عكرمة غازيا ، وكان له مجلس فى مؤخر مسجد الجامع فى غربى المنارة ، الموضع الذى يسمى بالركبية . انظر طبقات علماء أفريقية ص ١٩ .

(٤) هو صاحب سوق مسجد اسماعيل والأحباس ، وهو الذى يقال له تاجر الله انظر طبقات علماء أفريقية ص ٢٠ .

(٥) انظر طبقات علماء أفريقية ص ١٩ — ٢١ .

وقد تخرج على أيدى هؤلاء من أهل أفريقية خلق كثير منهم : زياد بن أنعم المعافرى ، وعبد الرحمن بن زياد ، ويزيد بن أبى منصور ، والمغيرة بن أبى بردة ، ورفاعة بن رافع ، وعمرو بن راشد بن مسلم السكنانى ، وعمران بن عبد المعافرى ، والمغيرة بن سلمة ، ومسلم بن يسار الأفريقى ، وغيرهم ممن حمل لواء العلم[١] .

وما لبثت مدينة القيروان أن أضحت محط أنظار أهل المغرب فكان فيها سحنون بن سعيد ، وسعيد بن محمد الحداد[٢] . كما لمعت قرطبة واشبيلية وغرناطة وبلنسية ، من بلدان الأندلس فى مطلع القرن الثالث الهجرى بيحيى بن يحيى ، وابن حبيب ، وبقى بن مخلد وغيرهم[٣] .

٨ — اليمن :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وجه معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى إلى اليمن ، كما نزل غيرهما من الصحابة فيها ، وتخرج فى اليمن علماء من أئمة التابعين ، منهم همام ووهب بنا منبه ، وطاوس وابنه ، ثم معمر بن راشد ، ثم عبد الرزاق بن همام وأصحابه[٤] .

٩ — خراسان :

نزل خراسان من الصحابة وتوفى بها بريدة بن حصيب الأسلمى ، وهو مدفون بمرو ، وأبو برزة الأسلمى ، والحكم بن عمرو الغفارى ، وعبد الله بن

---

(١) انظر طبقات علماء أفريقية ص ٢١ — ٢٤ .

(٢) انظر إعلام الموقعين ص ٢٧ ج ١ .

(٣) انظر الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ١٤٠ ، وانظر إعلام الموقعين ص ٢٧ ج ١ .

(٤) انظر الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ١٣٩ — ١٤٠ .

خازم الأسلمى المدفون بنيسابور ، وقثم بن العباس المدفون بسمرقند[١] ، وفى هذه البلاد ظهر كبار المحدثين .

فى (بخارى) كان عيسى بن موسى غنجار ، وأحمد بن حفص الفقيه ، ومحمد بن سلام البيكندى ، وعبد الله بن محمد السندى ، ثم أبو عبد الله محمد ابن اسماعيل البخارى .

وفى (سمرقند) أبو عبد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، ثم محمد ابن نصر المروزى .

كما ظهر فى الشاس فيما بعد الحسن بن الحاجب والهيثم بن كليب .

وفى (فريابر) تخرج جماعة من العلماء أقدمهم محمد بن يوسف الفريابى صاحب الثورى ، ثم القاضى جعفر بن محمد الفريابى صاحب التصانيف المتوفى سنة (٣٢٦ هـ)[٢] .

من كل ما تقدم يتبين لنا أن المسلمين عند ما ساروا إلى البلاد المجاورة ، لم يسيروا وراء دنيا يصيبونها ، ولا خلف تجارة يربحون منها ، وإنما انطلقوا ليحرروا الأمم من الظلم والطغيان ، وينشروا بين أبناء البلاد الجديدة تعاليم الإسلام ، ويأخذوا بأيديهم إلى جادة الصواب ، ويفتحوا عيونهم على نور الهداية والحق . وبهذا ، تتميز الفتوحات الإسلامية عن جميع الفتوحات التى عرفها التاريخ ، إلى جانب ميزات كثيرة يضيق المقام بذكرها ، ومن أجل تحقيق تلك الغاية المذكورة ، استقر علماء الصحابة فى الأقطار المختلفة ، وأمد الخلفاء الأمصار

---

(١) انظر معرفة علوم الحديث ص ١٩٤ .

(٢) انظر الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ١٤٣ .

بالعلماء ليسرعوا فى حركة التحرير والهداية والتعليم ، وقد التف المسلمون الجدد حول من عندهم من الصحابة .

وكان الصحابة يتفاوتون فى العلم ، ولم يكن عند كل واحد منهم جميع ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وشرعه ، ولهذا بدأت الرحلات العلمية فى سبيل جمع الحديث وتلقيه ، وقد ظهرت هذه أيضاً بين الصحابة ، وكثرت الرحلات من التابعين وأتباعهم ليسمعوا ما فاتهم ، أو ليتأكدوا مما سمعوا ، ولهذا نرى كثيراً من التابعين يقصدون الصحابة فى أقاصى البلاد يسافرون الليالى والأيام فى طلب حديث أو حديثين كما سيظهر لنا بعد قليل . وقد رأينا بروز بعض الصحابة ولمعانهم فى الأقطار المختلفة ، فانطبع تلامذتهم بطابعهم وساروا على نهجهم ، ثم حلوا محلهم وحملوا لواء العلم ونشره .

* * *

الرحلة فى طلب الحديث

كانت الرحلة فى طلب الحديث قائمة فى عهده صلى الله عليه وسلم ، فكان بعض من يسمع بالرسالة الجديدة ، يسافر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليسمع القرآن الكريم ، ويتفهم تعاليم الإسلام ، ثم ينصرف إلى قومه بعد أن يعلن إسلامه كما فعل ضمام بن ثعلبة .

فالرحلة فى عهد الرسول كانت عامة من أجل معرفة تعاليم الدين الجديد .

وأما فى عهد الصحابة والتابعين وأتباعهم فقد تمت رحلات كثيرة من العلماء فى طلب الحديث خاصة ، وكثيرا ما كانوا يقطعون المسافات الطويلة لسماع حديث أو التأكد من حديث وضبطه ، أو للالتقاء بصحابى وملازمته ، للأخذ عنه ، لأن الصحابة فى عهد التابعين توزعوا فى البلدان ونقلوا فى صدورهم الحديث النبوى ، فكان لا بد لمن أراد أن يجمع حديث محمد صلى الله عليه وسلم من أن ينتقل من بلد إلى آخر ، وراء الصحابة الذين سمعوا منه ورأوه وأخذوا الأحكام عنه ، ثم رحل أتباع التابعين إلى التابعين ، ولازموهم وأخذوا عنهم ، حتى تم جمع الحديث فى مراجعه الكبرى ، ومع هذا لم تنقطع رحلة العلماء فى سبيل المذاكرة والعرض على الشيوخ المشهورين .

ومما يروى فى رحلة الصحابة ما حدّث به عطاء بن أبى رباح قال : (خرج أبو أيوب الأنصارى إلى عقبة بن عامر ، يسأله عن حديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبق أحد سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غيره وغير عقبة ، فلما قدم إلى منزل مسلمة بن مخلد الأنصارى - وهو أمير مصر -

فأخبره فعجل عليه ، فخرج إليه فعانقه ، ثم قال له : ما جاء بك يا أبا أيوب ؟ فقال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يبق أحد سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم غيري وغير عقبة ، فابعث من يدلني على منزله ، قال : فبعث معه من يدله على منزل عقبة ، فأخبر عقبة ، فعجل فخرج إليه فعانقه ، فقال : ما جاء بك يا أبا أيوب ؟ فقال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق أحد سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم غيري وغيرك في ستر المؤمن ، قال عقبة : نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ ستَرَ مؤمناً في الدنيا على خِزيةٍ[1] ستره اللهُ يومَ القيامةِ » . فقال له أبو أيوب : صدقت . ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته ، فركبها راجعاً إلى المدينة ، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر[2] .

لقد خشي أبو أيوب أن يكون نسي شيئاً من حديث « ستر المؤمن » ، فأحب أن يتأكد من ذلك ، ويتثبت من صحة ما يحفظه عن الرسول الكريم ، فرحل من الحجاز إلى مصر ، يقطع الفيافي والقفار في سبيل ذلك ! !

وعن ابن عقيل أن جابر بن عبد الله حدثه : أنه بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : (فابتعت بعيرا ، فشددت إليه رحلي شهراً حتى قدمت الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس ، فبعثت إليه أن جابرا بالباب ، فرجع الرسول فقال : جابر بن عبد الله ؟ فقلت : نعم فخرج فاعتنقني . قلت : حديث بلغني لم أسمعه ، خشيت أن أموت أو تموت ، قال : سمعت النبي

---

(١) الخزية هو الشيء الذي يستحيا منه . وانظر لسان العرب ص ٢٤٧ ج ١٨

(٢) معرفة علوم الحديث ص ٨ وجامع بيان العلم وفضله ص ٩٣ ـ ٩٤ ج ١ وذكره زهير ابن حرب في كتابه « العلم » عن رجل ولم يذكر أبا أيوب الانصاري انظر ص ٨٧ ب : بيد أنه ذكر الخطيب مثله في الجامع لأخلاق الراوي ص ١٦٨ : ب ـ ١٦٩ : آ

صلى الله عليه وسلم يقول : « يحشر اللهُ العبادَ — أو الناسَ عراةً غرلا [١] بُهماً » قلنا : ما بُهماً ؟ قال : ليس معهم شيء ، فيناديهم بصوتٍ يسمعُه من بَعُدَ — أحسبه قال : — كما يسمعه من قَرُبَ : أنا الملكُ ، لا ينبغي لأحدٍ من أهلِ الجنةِ يدخلُ الجنة وأحدٌ من أهل النارِ يطلُبُه بمظلمةٍ ، ولا ينبغي لأحدٍ من أهلِ النارِ يدخلُ النارَ ، وأحدٌ من أهلِ الجنةِ يطلبه بمظلمةٍ ، قلتُ : وكيف ؟ وإنما نأتي اللهَ عُراةً بهما ؟ قال : « بالحسنات والسيئات » [٢] .

وتنشط الرحلات في طلب الحديث بين التابعين وأتباعهم ، حتى لقد كان أحدهم يخرج وما يخرجه إلا حديث عند صحابي يريد أن يسمعه منه لأنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا يروى عن أبي العالية قوله : « كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبصرة ، فلم نرض حتى ركبنا إلى المدينة فسمعناها من أفواههم [٣] . »

وخرج الشعبي في ثلاثة أحاديث ذكرت له ، فقال لعلي : ألقى رجلا لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] ، وروى الزهري عن سعيد بن المسيب قال : إن كنت لأسير ثلاثاً في الحديث الواحد [٥] . وأقام أبو قلابة بالمدينة وليس له بها حاجة إلا رجل عنده حديث واحد ليسمعه منه [٦] . ويروى أن « مسروقا »

---

(١) غرلا جمع (أغرل) وهو الذي لم يختن .

(٢) الأدب المفرد ص ٢٣٧ وجامع بيان العلم وفضله ص ٩٣ ج ١ والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٦٨ : ب

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٦٨ : ب والكفاية ص ٤٠٢

(٤) انظر المحدث الفاصل ص ٢٩ : آ

(٥) انظر المحدث الفاصل ص ٢٨ : ب والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٦٩ : ب ، وتذكرة الحفاظ ص ٥٢ ج ١ وجامع بيان العلم وفضله ص ٩٤ ج ١ .

(٦) انظر المحدث الفاصل ص ٢٨ : ب

رحل فى حرف[١] ، ويظهر أن « مسروقا[٢] » كان كثير الترحال ، ولذلك قال عامر الشعبي : ما علمت أن أحداً من الناس كان أطلب لعلم فى أفق من الآفاق من مسروق[٣] . ويروى عن الشعبي أنه حدث بحديث ثم قال لمن حدثه : (أعطيتُكَهُ بغير شيء ، وإن كان الراكب ليركب إلى المدينة فيما دونه[٤]) .

وكان الصحابة الكرام يشجعون على طلب العلم ، وعلى الرحلة من أجله ، من هذا ما روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله تعالى منى تبلغه الإبل لأتيته[٥] » وكانوا يرحبون بطلاب العلم كما سبق أن ذكرنا ، وكل هذا حبب إلى التابعين الرحلة ، حتى إن عامرا الشعبي قال : « لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ، ليسمع كلمة حكمة ما رأيت أن سفره ضاع[٦] » ، وفعلا كانوا يرحلون إلى الصحابة ولا يرون أن سفرهم قد ضاع .

عن كثير بن قيس قال : كنت جالسا عند أبي الدرداء فى مسجد دمشق ، فأتاه رجل ، فقال : يا أبا الدرداء ! أتيتك من المدينة ، مدينة رسول الله

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ٩٤ جـ ١

(٢) ومسروق هو ابن الاجدع الهمدانى ابو عائشة تابعى ثقة يمنى الأصل ، رحل إلى المدينة أيام أبي بكر ثم سكن الكوفة وشهد حروب على وكان يفتى توفى سنة (٦٢) هـ . انظر : تهذيب التهذيب ص ١٠٩ جـ ١٠ .

(٣) جامع بيان العلم فضله ص ٩٤ جـ ١ والمحدث الفاصل ص ٢٩ : آ

(٤) جامع بيان العلم وفضله ص ٩٤ جـ ١ ، ومعرفة علوم الحديث : ٧ وقد أخرج الشيخان نحوه انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ص ١٧١ جـ ٢ وانظر الأدب المفرد ص ٨١ ، وصحيح مسلم ص ١٣٥ جـ ١ ، كما أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه .

(٥) الكفاية ص ٤٠٢ .

(٦) جامع بيان العلم وفضله ص ٩٥ جـ ١ ، والرحلة الحجازية والرياض الأنسية ص ١٤

صلى الله عليه وسلم لحديث بلغنى أنك تحدث به عن النبى صلى الله عليه وسلم . قال : فما جاء بك تجارة ؟ قال : لا . قال : ولا جاء بك غيره ؟ قال : لا . قال : فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ سَلَكَ طريقاً يلتمسُ فيه علماً سهلَ اللهُ له طريقاً إلى الجنةِ ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن طالبَ العلم يستغفرُ له من فى السماء والأرض ، حتى الحيتان فى الماء ، وإنَّ فضلَ العالم على العابدِ كفضلِ القمر على سائرِ الكواكبِ . إنَّ العلماء ورثةُ الأنبياء إن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورّثوا العلم فمن أخذهُ أخذَ بحظٍ وافر [1] . »

وعن زِرِّ بنِ حبيش [2] ، قال : أتيت صفوان بن عسال المرادى ، فقال : ما جاء بك ؟ قلت : أنبط العلم . قال : فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من خارج خرجَ من بيتهِ فى طلبِ العلم إلا وضَعتْ لهُ الملائكةُ أجنحتَها ، رضا بما يصنعُ [3] » .

وأخبار العلماء ورحلاتهم كثيرة يضيق المقام بذكرها ، ويكفينا أن نذكر شيئاً منها ، فقد رحل ابن شهاب إلى الشام ليلقى عطاء بن يزيد وابن محيريز وابن حيوة ؛ ورحل يحيى بن أبى كثير إلى المدينة للقاء من بها من أولاد الصحابة ، ورحل محمد بن سيرين إلى الكوفة فلقى بها عبيدة وعلقمة وعبد الرحمن

---

(١) سنن البيهقى ص ٨١ ج ١ ، والجرح والتعديل ص ١٢ ج ١ وقد رواه ابن ماجه فى سننه ص ٨١ ج ١ .

(٢) زر بزاى مكسورة فراء مشددة بوزن هر

(٣) سنن ابن ماجه ص ٨٢ حديث ٢٢٦ ج ١ طبعة عيسى البابى الحلبى وانظر مجمع الزوائد ص ١٣١ ج ١ ، والجرح والتعديل ص ١٣ ج ١ وأنبط العلم أى أطلبه وأستخرجه من عند أهله .

ابن أبي ليلى ، ورحل الأوزاعي إلى يحيى بن أبي كثير باليمامة ودخل البصرة ، ورحل سفيان الثوري إلى اليمن ثم دخل البصرة ، ورحل عيسى بن يونس إلى الأوزاعي بالشام . . . ورحل شعيب بن أبي حمزة إلى الزهري وهو يومئذ بالشام . وأما رحلة العلماء من بلد إلى بلد في الإقليم الواحد ، فكثيرة كثرة تفوق الحصر[1] .

وكان لرحلات العلماء في طلب الحديث أثر بعيد في انتشار السنة ، فما لا شك فيه أن الراوي يرى من يروي عنه ، ويقف على سيرته ، ويسأل أهل بلده عنه ، وكثيراً ما كانوا يتشددون في السؤال عن الراوي ، حتى يقال لهم أتريدون أن تزوجوه ؟

كذلك كان للرحلات فائدة عظيمة في معرفة طرق كثيرة للحديث الواحد فقد يسمع الراوي من علماء المصر الذي رحل إليه زيادات لم يسمعها من علماء مصره وكثيراً ما يجد عندهم ما لم يجده عند شيوخه ، وقد تقع مناظرات بين علماء الأمصار ، تعارض فيها طرق الحديث الواحد ، فيحصّل فيها القوي ويعرف الضعيف ، ويزداد طلاب العلم معرفة لأسباب ورود الأحاديث ، حين يلقون من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أفتاه أو قضى له .

ويكفي الرحلة فائدة أن تساعد على نشر الحديث وجمعه ، وتمحيصه والتثبت فيه ، فكان لرحلات الصحابة والتابعين وأتباعهم أثر جليل في المحافظة على السنة وجمعها وتدلنا تراجم الرواة على الصعاب التي كانوا

---

(١) انظر المحدث الفاصل ص ٣١ : ب و ٣٢ : ب وتراجم جامع بيان العلم ص ٩٤ و ٩٥ ج ١ .

يستعذبونها فى سبيل حفظ السنة ، وسماع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منابعها الصحيحة ، ويكفينا أن نقرأ فى ترجمة أحدهم ، هو فلان اليمنى ، ثم المكى ، ثم المـــدنى ، ثم الشامى ، ثم الكوفى ، ثم البصرى ، ثم المصرى ، لنعرف مقدار ما قاسى فى قطع الفيافى والبعد عن الأهل والأوطان ، وما تحمله من مشاق حتى أصبح من رجال الحديث فى عصره . فلم يصلنا الحديث النبوى فى مصنفاته وكتبه ، مرتباً بأسانيده ، وعلى أبواب جامعة كل منها فى موضوع خاص ، إلا بعد أن خدمه الصحابة ، والتابعون وأتباعهم ، والعلماء من بعدهم ووقفوا عليه حياتهم ، فجزاهم الله عنا خير الجزاء ، وأسكنهم فسيح جنانه .

لا نشك فى أن الحديث النبوى قد انتشر جنباً إلى جنب مع القرآن الكريم ، ووصل إلى الأقاليم الإسلامية الجديدة ، ولا نشك فى أن العلم لم يبق مقصوراً على مكة والمدينة ، بل تعددت مراكزه ومجالسه ، وشهدت الأمصار البعيدة ما شهدته حواضر العالم الإسلامى ، من نشاط علمى على يدى الصحابة رضوان الله عليهم ، ويمكننا أن نتصور مدارس متنقلة فى مختلف الأمصار ، روادها الصحابة وكبار التابعين ، إذ كان يكفى لأهل خراسان مثلا أن يحل بينهم صحابى حتى يسرعوا إليه ، ويلتفوا حوله ويسألوه ويستقرئوه القرآن ويسمعوا منه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

هذا جانب عظيم يصور لنا انتشار السنة فى أبعد حدود الدولة الإسلامية ولكن لا بد لنا من أن نقول الحق وإن كان مراً ، فإن بعض من دخل الإسلام — إثر الفتح — إنما دخله نفاقاً ، أو اعتنقه على

أنقاض عقائد فاسدة بقيت رواسبها فى نفسه ، فجعلته ينتهز أية فرصة للطعن فى الدين الجديد ، الذى قوض أمجاد آبائه ، وأطاح بمصالحه الشخصية ، ومنهم من كان متعصبا لقومه وبلده . وهناك بعض الخلافات السياسية التى حدثت عقب الفتنة وظهور الفرق والأحزاب، كل هذا كان عاملا فى ظهور الوضع فى الحديث الشريف إلى جانب انتشاره فى الآفاق . وهذا ما سندرسه فى الباب التالى ونفصل أسبابه ونبين جهود الصحابة والتابعين وأتباعهم ، والعلماء من بعدهم ، فى سبيل المحافظة على السنة ، وصيانتها من عبث أعداء الدين .